لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

علي وعائشة رضي الله عنهما

وصف جديد للخصومة
السياسية بينهما وأثرها
وخطرها في تاريخ الإسلام

بقلم

عمر أبو النصر

القاهرة
[١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م]

ملتزمو الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

علي وعائشة رضي الله عنهما

وصف جديد للخصومة
السياسية بينهما وأثرها
وخطرها في تاريخ الإسلام

بقلم

عمر أبو النصر

القاهرة
[١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م]

مطبعة الطليع والنشر لأصحابه
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

علي وعائشة رضي الله عنهما

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الكتاب قصة خلاف لعب فيه فى الدور الأول شخصيتان لهما مكانتهما فى الإسلام وتاريخ العربية . . . ولا يزال أثر هذا الخلاف بيناً ظاهراً قويا حتى اليوم ، فان كنت عرضت له فى شىء من الاعتدال كثير ، وفى مثله من ضبط النفس ، مع التحرى عن أصدق المصادر وأوثقها ، فمرد ذلك أنى أؤمن الإيمان كله بأن مثل هذه الأحداث الشائكة تقع فى تاريخ كل أمة من الأمم ، فلا تمنعها عن المضى فى سبيلها حيث تأخذ مكانها من صدر الوجود ...

وحرىٌّ بنا وقد أخذنا نشعر بأننا أمة ، وأن من حقنا أن نحيا ، وأن من واجبنا أن نعيد دورة الفلك ، يوم كان أجدادنا يبنون الدنيا ، ويقيمون موازين العدل والإحسان ، أن نعرض لهذه الأحداث المؤلمة التى صدمتنا أول عهدنا بإنشاء الممالك ، وفتح الأرض ، ليكون فيها من العبرة لمن يأتى بعدنا ، والعظة لمن يرث أرضنا من أبنائنا ، فلا ينظر إلى السلطان والملك إلا أنه سبيل للاصلاح والعمل المنتج ، ولا ينظر إلى الحزبية إلا أنها حدث عارض إذا دلت

على شيء ، فعلى أن الاختلاف السياسى لا يجب أن يعدو غاياته من أنه رأى ثان يظن صاحبه أنه أفضل وأصلح لقوام الأمة ومصلحة المجموع ...

واما أن يتعدى الاختلاف السياسى غايته هذه ، فيبدو جاهما ، ويظهر ثورة غماء ، وحقداً مقصوداً وكرها ليس له ما يبرره ، فدليل على ضعف النضج السياسى فى الأمة ، و برهان على أنها لا تزال مائعة لا تصلح للحكم ولا للسلطان ..

* * *

لما كانت الحديبية ، وتنادى المسلمون وأهل مكة لكتابة العهد فيما بينهما ، أبت قريش فى المعاهدة التى صار توقيعها بين الفريقين أن يذكر محمد بن عبدالله كرسول الله ، وحجتهم أنه لو كان رسول الله حقا عندهم ، لما خالفوا ولاحاربوا ، وتقبل رسول الله أنكار القوم برحابة صدر أدهشت المسلمين قبل المشركين ، وكادت تفسد أمرهم ، وتم لقريش ما أرادت ، وعاد المسلمون وقد ملأهم من اليأس شيء كثير . . ولكن الأيام أكدت بُعد نظر رسول الله ، وصواب رأيه إذا اعترفت قريش فى هذه المعاهدة لأول مرة بسلطان محمد ودولته الجديدة ، وما عتمت هذه الدولة العربية الناشئة أن أدالت قريشا عن استقلالها الذاتى ، لم يُضرب فى سبيل هذا الفتح المبين سيف إلا ما كان من بعض الغوغاء الذين تكلفوا المقاومة عند دخول مكة ، فذهبوا بين قتيل وجريح ، لما صدمهم خالد بن الوليد برجاله ، وقد أنكر رسول الله ذلك إذ كان يريد الفتح لينا منزها عن العنف والدم ...

وتم إسلام المخالفين ، وتناسى المسلمون حديث هـذه الماضيات من الأيام ، وغفر الله ورسوله للجميع ما صدر عنهم من خطأ سابق ، وتنادى شباب العرب جميعا لإنشاء الدنيا الجديدة ، ونشر الدين الجديد . . . صفا واحـدا ، وجبهة واحدة، وقد تأثروا جميعا بسماحة الرسول وكرم أخلاقه وتناسوا ما كان بينهم من خلاف وحزبية و بغضاء . . .

ومثل هذا حدث فى معركة الجمل ، فقد وقعت الواقعة وكانت المعركة وذهب ضحيتها آلاف من المسلمين ، ثم نرى أمير المؤمنـين على بن أبى طالب لا يأمر بالإجهاز على جريح ، ولا مطاردة هارب ، وزار عائشة واستغفر لها ، ثم بعثها إلى مكة مكرمة تخفرها جماعة من سيدات المسلمين . . .

* * *

و إذا كان هذا موقف الرسول والإمام من هذه المواقف الجاهمة ، والأحداث السالفة ، يتـكلفون مداراتها وتسويتها بالتى هى أحسن ، فإذا انتهى أمرها وثاب الناس إلى أحلامهم ، تناسوها وكأن شيئاً لم يكن ، وعمدوا إلى المثل العليا ينشرون رياها ، ويوزعون أريجها ، و يبنون الدنيـا الجديدة على أنها توحيد فى الدين ، وتوحيد فى السياسة . . .

* * *

يخيل إلىَّ أن أشياء من هذا سوف تكون أمراً منظوراً مع الأيام ، فلسوف يعود إلى هـذا الجيل وعيه القومى ، ولسوف يتفهم هذا الشباب الناشئ ما فى سياسة الرسول من رحابة وسماحة وحلم لا يتخللها غضب ولا حفيظة ولا حقد . .

وما كان لمثله أن يتكلف من هذا لا كثيراً ولا قليلا ، وما كان لنا ، وهو مثلنا الأعلى فى الوعى القومى والروح القومية ، أن نتجافى سياسته ونتبع غير سبيله ، وأمامنا دنيا العرب لا نوليها من اهتمامنا بقدر ما نولى أخطاءنا السابقة ، ومنازعنا الحاضرة ، حتى كأننا نعيش فى ظلام القرون الماضية ، لا فى حديد القرن العشرين وثورة العصر الجديد . . .

القاهرة ١٦ أذار سنة ١٩٤٧

المؤلف

الفصل الأول

المؤامرة

الحزب الأول

فى الساعات التى تقطعت بين وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و بيعة الخليفة الأول ، خلت الدولة الإسلامية الناشئة من الأداة الحكومية التنفيذية التى كانت ممثلة فى رسول الله ، فتعطلت المصالح ، وتأجلت الأحكام ، وتوقف الجيش المتحفز للغزو بقيادة أسامة بن زيد ، وعمّ المسلمين وجوم عظيم كان أثره ظاهراً بيناً فى هذه الحيرة التى تولت جماعة المدينة لا فرق فى ذلك بين كبيرهم وصغيرهم ، نساءاً ورجالا ، شيوخاً وأطفالا .

وكان من أثر هذه الحيرة خارج المدينة و بين القبائل العربية الجديدة الإسلام ، لما بلغها النباء الصاعق ، أن ارتد أكثرها ، متحفزاً للعودة إلى ما كان ينعم به سابقاً وقبل الإسلام من استقلال ذاتى فردى وجاهلية.

وأما فى المدينة فلما استعاد الناس روعهم بعد ساعات ، ظهر على مسرح السياسة العربية ثلاثة أحزاب جديدة . . كان أحدها مختمراً فى قلوب أصحابه قبل وفاة رسول الله بأيام ، وهو حزب الهاشميين الذى كان أول الأحزاب

*

الثلاثة ظهوراً . . والمصادر التاريخيـة التى بين أيدينـا تؤكد أن العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله تحدث إلى على بن أبى طالب فى غمرة المرض بأن يساءل رسول الله عن نصيب بنى هاشم فى هذا الأمر ، فاذا كان لهم منه شىء ، لم ينازعهم فيه أحد ، وإن كان لغيرهم ، أو كان لسواهم فيه حق أوصى بهم خيراً ، فرفض علىؓ أن يسأل رسول الله شيئاً وحجته أن كلمة من رسول الله بدفعهم عن الخلافة تدفعهم عنها إلى يوم القيامة . .

وسواء أصح هـذا الخبر أم لم يصح ، فليس هناك ما يمنع الهـاشميين من التفكير فى نصيبهم من هذا الأمر قبل وفاة الرسول، وهم أهله وعشيرته ، ومن أولى من عترة النبى وأهله بإرثه ؟

أليس من عادة الملوك إذا آتاهم الله الملك أن يرثهم أهلهم ، وأن يقوم بعدهم أبناؤهم ، أو من يقوم من أهلهم مقـام أبنائهم إذا لم يكن لهم أبنـاء من الذكور ؟

ولـكن أحداً من الهاشميين كما يظهر لم يتحدث إلى أحـد من غير الأهل بأغراضه السياسية وآماله الملـكية ، فظلت الفكرة فى قلوب أصحابها تنتظر الفرصة السانحة للظهور ، لا يدور بخلد أحدهم أن هناك بين المسلمين من ينافسهم هذا الحق ، أو يدفعهم عنه ، وهو ما حمل علياً على أن لا يسأل رسول الله عن نصيب بنى هاشم فى هذا الأمر مخافة أن يدفعه رسول الله عنهم ؛ وقد عرفوا فيه الترفع عن الدنيـا ، والرغبة فى أن يجنب أهـله المناصب الحكومية ما كان إلى ذلك سبيل . .

حزب الأنصار

فلما قبض رسول الله إلى الملأ الأعلى ، ظهرت على مسرح السياسة الإسلامية ظاهرة جديدة لم يكن يفطن أحد إلى أنها قد تقع أو تكون . . وهى مطالبة الأنصار بالأمر ، ودعوتهم إلى أن يكون السلطان فيهم ، لأن الدين إنما قام على سواعدهم ، ولولا تأييدهم رسول الله ونصرتهم له بعد أن بذل له قومه الحرب والعدوان لما نشط الاسلام ، واستتب له الأمر ، وطوى الجزيرة قاصيها ودانيها ..

واجتمع الأنصار ولما يدفن رسول الله ، يبحثون أمرهم فيما بينهم ، ومن يكون خليفة رسول الله منهم ، فيأتيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، يدافعون عن حق المهاجرين فى هذا الأمر ، ويكون حوار ونقاش ينتهيان بمبايعة الأنصار لأبى بكر ، متنازلين بذلك عما كانوا يدعونه من حق فى الخلافة ، بعد أن أكد لهم أبو بكر أن هذا الأمر يجب أن يكون فى المهاجرين ، وأنه إذا كان هناك من حق للأنصار فهم الوزراء والمهاجرون الأمراء . .

الحزب الحكومى

وكذلك ظفر المهاجرون الذين كانوا بزعامة أبى بكر وعمر بالمعركة السياسية الأولى فتم لهم الأمر ، وتولى الخلافة أحدهم ، وتنازل الأنصار عن دعوتهم وأجمعت كلمة المسلمين على بيعة أبى بكر إلا ما كان من بعض الهاشميين وعلى رأسهم على ابن أبى طالب الذى بايع وأنصاره أبا بكر بعد تردد ، أو بعد وفاة فاطمة بنت محمد صلوات الله عليهما على قول بعض المؤرخين .

ولم تكن مبايعة على لأبى بكر تنازلا منه عن حق ينادى به ، و إنما كانت عملا سياسياً لبقاً توافرت على تأييده وفرضه عوامل مختلفة أهمها اجماع المسلمين على خلافة أبى بكر ، ومقام الخليفة الأول فى الاسلام وعند رسول الله ، وكون أبى بكر شيخاً لن يطول به الأمر حتى يذهب لمآبه ، وكونه من قبيلة لم تتوفر لها مساجلة بنى هاشم ، ولا كانت ممن تقوم للهاشميين فى معرض المباهاة والمساجلة ، و إذا أضفنا إلى هذا أن علياً كان لا يزال فى هذا العهد شاباً يضطرب فى الثلاثين ، والعرب تكره حكم الشباب ولا تُطيقه مع وجود من هو أسن منه ، أدركنا جملة الأسباب التى توافرت حتى حملت علياً على قبول الأمر الواقع ، وانتظار الفرصة السانحة المقبلة . .

و إذن فنحن الآن و بعد وفاة رسول الله وخلافة أبى بكر أمام حزبين لاثالث لهما ، حزب الحكومة القائمة ، الممثل فى أبى بكر وعمر وأبى عبيدة وغيرهم من المهاجرين والأنصار ، وحزب الهاشميين الممثل فى على والعباس وغيرهما من بنى هاشم ، وأما الحزب الأموى فلم يكن قد ظهر على المسرح السياسى . .

المستشرقون والمؤامرة المزعومة

هذا هو الموقف الحزبى السياسى فى هذه الفترة من نشوء الدولة الإسلامية الأولى بسطناه بأقصى ما يكون من الجلاء والوضوح ، ولكن بعض المستشرقين يذهبون إلى أن الخليفة الأول إنما وصل إلى الخلافة بمؤامرة مدبرة حيكت أصولها ورتبت أطرافها بكل عناية و إحكام .

وأما أبطال المؤامرة فثلاثة رجال ، أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، وأما صاحب

الاكتشاف فالأب لا منس المستشرق الذائع الصيت وصاحب الأبحاث الضخمة فى نشوء الإسلام وقيـام الدولة الأموية ، وليس الخبر من مخترعات لا منس بكل ما فى الـكلمة من معنى ، فقد ردده قبله بعض مؤرخى الشيعة وعرض له ابن أبى الحديد شارح نهج البـلاغة وهو من معتدلى الشيعة . . ولـكن لا منس أضفى عليه ثوباً رائعاً من حسن الحبك وجمال التصوير ، واعتمد عليه كمصدر من المصادر التاريخية الموثوقة فى دراساته وابحاثه . .

يقول لا منس إن الخليفة الأول كان أدهى أصحاب محمد ، وأكثرهم لباقة وأبعدهم نظراً وإنه كان يمنى نفسه منذ زمن بعيد بعرش محمد وخلافته يؤيده فى ذلك عمر وأبو عبيدة وكان الاتفاق تاماً بين الثلاثة . . يتولى الأول الخلافة بمساعدة عمرو وأبى عبيدة ، فإذا وفق لها ، فعليه أن يوطد الأمر لعمر ، وهذا بدوره يرشح أبا عبيدة ليكون الخليفة من بعده . .

وصار تنفيذ هـذا الاتفاق السياسى المعقود بين الثلاثة على أفضل وأيسر ما يرجوه كل واحد منهم ، فوطد أبو بكر الأمر للفاروق ولأبى عبيدة ، بأن قلد عمراً القضاء وأبا عبيدة الفيء ، فلما آذنت شمس حياته بمغيب عهد إلى الفاروق بالخلافة ، بعد أن استوثق له من الصحابة أو بعد أن جعلهم أمام الأمر الواقع . .

فلما ولى عمر الخلافة أنفذ أبا عبيدة إلى الشام يقاسم خالداً امجاد الانتصارات الحربيـة التى كانت تضفيها المعارك عليه بعد أن جعله قائداً عاماً على الجيوش الإسلامية فى سورية وفلسطين ، ولـكن أبا عبيدة توفى فى خلافة الفاروق فلم ينل حصته من المؤامرة ، وعاد المسلمون إلى الشورى ، بعد أن حرموا منها طيلة الأعوام الماضية . .

امرأتاه

ولم يغفل الأب لا منس عن تسمية ما قدمناه (مؤامرة سياسية) كما لم ينس الظاهرة الخطيرة فى مثل هذا الموقف من إقحام بعض النساء فى هذه المغامرة السياسية ، بحيث تتوفر لها كل شروط الحبك والتأليف . . وقد وقع اختياره على عائشة وحفصة من زوجات النبى، والأولى بنت أبى بكر والثانية بنت عمر بن الخطاب ، ولو تزوج رسول الله بنت أبى عبيدة مثلا لأشركها لا منس فى المؤامرة حتما، فخرجت مؤامرته هذه تضطرب فى ثلاثة رجال وامرأتين . .

ولكن المصادر العربية لا تؤيد شيئاً ولو يسيراً من هذا فليس هناك مصدر واحد يدعو إلى القول بأن الخليفة الأول والفاروق كانا يفكران بالخلافة بعد رسول الله، أو أن أحداً منهما فطن إلى أنه سيكون الخليفة بعد محمد بن عبد الله، والمصادر التى بين أيدينا تؤكد أن الفاروق نفسه فوجئ بوفاة رسول الله مفاجئة أذهلته وذهبت بحامه ، ولا منس يتجاهل هذا المصدر المتواتر فى مختلف كتب التاريخ تجاهلا ليس هناك ما يبرره فى حال من الأحوال ..

ولا يبخل لا منس على السيدة عائشة بالتقدير والإعجاب ، فهو يغدق عليها كل صفات العبقرية والذكاء والدراية والنبوغ السياسى ، ونحن وان كنا ننكر المؤامرة ـ وهى من الخيال ما فى ذلك شك ـ فلا ننكر قيام حزب حكومى فى خلافة الصديق ، كان أنصارة المهاجرون من غير بنى هاشم ، وكان من أنصاره الأنصار أيضاً ، وقد أيده الأمويون طيلة السنوات التى تقطعت بين خلافة الصديق حتى استشهاد الفاروق ، فلما انتهى إليهم السلطان فى عهد عثمان ابن عفان ظهر حزبهم قويا نشيطا ضخما .

ومن المؤكد أن تأييد الأمويين للحزب الحكومى طيلة هذه السنوات الأولى من نشوء الدولة الإسلامية كان لأسباب سياسية لم يكن لهم بد من تكلفها ومسايرتها، فالأمويون وقد كانوا الحزب السياسى النابه فى قريش ومكة قبل الإسلام وقبل ظهور الرسول وحتى فتح مكة ، لم يكونوا من القوة والبأس فى الجماعة الاسلامية الناشئة بحيث يستطيع أحدهم فرض سلطانه أو إعلان رأيه، خصوصا وقد تبدلت مقاييس الأمور ، وموازين الشخصية فى العهد الجديد، وأصبح النابه البارز من تقبل الاسلام طوعا لا كرها ، ومن أقبل عليه وهو ما يزال طفلا يحبو ، لا من تقبله بعد تبسط شأنه ، واشتداد خطره . . . و بعد فتح مكة بصورة خاصة . . . وكان الأمويون إلا أقلهم من الجماعة التى حاربت الاسلام ، وتولته بالخصومة الشديدة الجاهمة ، فكان من الصعب والحالة هذه أن يقوم لهم سلطان ، أو يظهر لهم تأثير سياسى فى السنوات الأولى من نشوء الدولة الجديدة ، وفى أيام أبى بكر وعمر بن الخطاب . .

الفصل الثانى

عائشة أم المؤمنين

الموقف الجاهم :

اعلم أن هناك من يتجافى بحثاً كهذا ، واعـلم أن كثيراً من أصدقائى سوف يشتطون فى بحث الأسباب التى أدت إلى مثل هذا الـكتاب، فأقول لهم ان هذه الحوادث الجاهمـة التى أؤرخ لها ، كان لها أثرها القوى البعيـد فى نشوءالدولة الإسلامية الأولى وانهيارها ، وكان لها أثرها فى نشوء الإسلام وتبسط سلطانه ، وكان لها أثرها فى تعدد الشيع الاسلامية واختلافها ، وكان لها أثرها فى موقفنا الحاضر من هذه الأحـداث البعيدة ، وهو موقف يختلف قوة وضعفاً ، وفاقا لميولنا وأغراضنا ، ولـكنها على كل حال أحـداث ماخرجت عن كونها قطعة من روحنا ، قطعة من تار يخنا ، لعب فيها أجدادنا الدور الأول وتمزقوا شـيعاً فى بحثها وتأو يلها ، وكان من أثر هذا أن قاتل بعضهم بعضاً ، وأن سقط بعضهم شهيداً بسيف أخيه ، ولولا رحمـة الله ، ولولا أن الفـاروق مزق الأكاسرة والقياصرة قبل ذهابه لمآبه ، لما كان هناك من يمنع إحدى هاتين الإمبراطور يتين من الزحف على الأمصار الاسلاميـة ، إبان الاختلافات الداخلية يمعنون فيها

تمزيقا وتدميرا لعلهم يسترجعون ما استخلصه أصحاب محمد وأنصار محمد منهم لسنوات خلت، وقد غاب عنهم أنها أرض قد امتزجت بدماء المؤمنين الأول، وأن هؤلاء المؤمنين يرقدون اليوم تحت الظلال الندية فى غوطة دمشق . وعلى ضفاف النيل . وحول دجلة والفرات .

كانت أم المؤمنين سيدة لا ترى كبير أمر فى المغامرة والثورة ، توفى رسول الله عنها وهى ما تزال فتاه تخطر فى جلال الوحى والإلهام ، جميلة الوجه ، ذكية الفؤاد ، آتاها الله حظا من العلم والفهم لم يؤت مثله الكثيرون من الرجال، وقد أجمع السلف على أنها من أعلم الناس بالحديث والقرآن، وأن الصحابة وغير الصحابة كانوا يأخذون العلم عنها و يسألونها فى كثير من الأحكام ، فلا تعجب بعد هذا ان رأيتها تخوض المعترك السياسى مع الخائضين ، ولا تنكر عليها أن تتزعم المعارضة ، تعلن رأيها فى عثمان وسياسته ، وتدعو الناس إلى إصلاحه فالخروج عليه ، فإذا فعلوا ما دعتهم إليه ، وذهب عثمان لمآبه طعنا بالسيوف وهو فى بيته يقرأ قرآنه ، وأجمع الناس فى المدينة بعد هذا على بيعة على بن أبى طالب ، تنكرت للبيعة وقامت تدعو للاقتصاص من القتلة ، وحزمت أمرها على المطالبة بدم الخليفة المظلوم ، وراحت تقود جيوشا تحارب فيه الإمام القائم ، فلا تنتهى المعركة بينها و بينه حتى يتجسد الثرى ثلاثة عشر ألفا من المسلمين .

كانت غزوة بدر ، وكانت معركة اليرموك ، ثم كانت القادسية ، وكل كان من المعارك الحاسمة فى تاريخ الإسلام ، تأيد فى الأولى سلطان محمد، وذهبت الثانية بملك القياصرة فى سورية ؛ وقضت الثالثة على سلطان الأكاسرة فى العراق ولكن مثل هذا العدد من المسلمين لم يسقط فى معركة من هذه المعارك الفاصلة.

فإذا أتى المؤرخ المعاصر يبحث هذه الأحداث الأولى ، أُسقط فى يده فلا

يدرى ما يقوله فى معركة الجمل التى حارب فيها المسلم المسلم ، والعربى العربى ، لا فى سبيل الاسلام ولا فى سبيل العربية ولكن فى سبيل الحكم والخلافة . . .

والواقع أن موقف المؤرخ المعاصر فى غاية الدقة والخطورة ، إذا ما أراد تعليقا على هذه الأحداث ورأيا صريحا فى أسبابها ومسبباتها، ولكن الاخلاص فى البحث والرغبة فى التوفيق بين الآراء المتشابكة ، يدعونا إلى القول بأن مثل هذه الأخطاء تقع فى كل أمة من الأمم ، وتحصل بين كل جماعة ناشئة من الناس خصوصا إذا كانت الأمة لا تزال فى أول نشوءها السياسى ، فليس هناك والحالة هذه كبير أمر فى اختلاف على وعائشة حول الحكم والسلطان، وليس هناك عظيم خطر فى بحث هذه الأخطاء السياسية ، التى وقعت حتما ، نعود فيها سيرتها الأولى فلا نقع فى أمثالها كرة ثانية ، وكل ما أريد أن يذكره القارىء أن عائشة أم المؤمنين ، وقد كان رسول الله محبا لها عطوفا عليها ، فلنذكر هذه الظاهرة فى بحثنا ، وحرى بالعربى أن يحب من كان محمد يحبه . . .

الحياة الأولى

تزوج رسول الله عائشة قبل الهجرة بسنتين وهو ما ذهب إليه أبو عبيدة وأما سواه فيقول : بثلاث سنين ، وهى بنت سبع، ودخل عليها فى المدينة وهى فى التاسعة أو العاشرة من العمر ، وتزوجها رسول الله باجماع المؤرخين بعد وفاة خديجة بثلاث سنين ، وكان دخوله عليها فى شوال ، فكانت تحب أن تدخل النساء من أهلها وأحبتها على أزواجهن فى هذا الشهر وهى تقول :

— هل كان فى نسائه أحظى منى . ؟

والحق أن رسول الله كان يحبها ؛ وكانت لها عليه دالة ؛ وكانت إلى ذلك

فتاة مرحة جمعت بين الجمال والذكاء والحركة الدائمة ، راحت تثير الضجة فى البيت وخارج البيت ، فألفت الأحزاب ؛ وأعـــدت الخطط التى قسمت بيت رسول الله إلى معسكرين ، وترأست حزب الشباب وقوامه حفصة بنت عمر ، وصفية بنت حيي بن أخطب ، وسودة بنت زمعة ، وترأست الثـانى أم سلمة ، وقوامه زينب بنت جحش ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وجويرية بنت الحارث وكان الخلاف مستحكما بين الحزبين ما فى ذلك شك ، ورسول الله يرعى الجميع ويحفظ حق الجميع ، مع الصبر والتغاضى والحـلم ورحابة الصدر . .

وقد أجمع حزب الشيوخ والعجائز يوما ولم يكن جميعا كذلك ، ولـكن الرئيسة أم ســـلمة كانت تناهز الستين ، وانتدبن زينب بنت جحش لابلاغ احتجاجهن شفاها إلى رسول الله ، وكان فى بيت عائشة فذهبت إليه ولمـا مثلت أمامه قالت :

— ان أزواجك أرسلننى إليك ليسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة .

ثم أقبلت على عائشة تسمعها الـكلام الشديد القارص ، وعائشة تسمع ولا تحير جوابا، وهى بين فترة وأخرى تراقب رسول الله لترى أيسمح لها أن تنتصر أو تدافع عن نفسها ، فلما رأت منه ميلا إلى ذلك اســتطالت على زينب حتى أفحمتها . . .

فقال النبى ! إنها ابنة أبى بكر ...

وحدث مرة أن دخل أبو بكر منزل رسول الله فإذا به يسمع صوت عائشة يعلو على صوت النبى فاستشاط غضبا وأقبل عليها يقول :

— يا بنت أم رومان أترفعين صوتك على رسول الله ؟

وهمَّ بها فرده الرسول عنها، فلما خرج جعل الرسول يترضاها و يقول :

— ألا ترين أنى قد حلت بين الرجل و بينك ؟

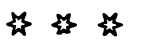

وتحدث رسول الله يوما إلى عائشة قائلا :

— إنى لأعلم ياعا ئشة إذا كنت علىَّ غضبى .

فقالت له : بمَ تعرف ذلك ؟

فقال : إذا كنت عنى راضيه تقولين حين تحلفين (لا ورب محمد) و إذا كنت علىَّ غضبى قلت (لا ورب إبراهيم) .

فقالت عائشة : أجل ما أهجر إلا اسمك ..

سباق

وتقص علينا عائشة أنها خرجت مع رسول الله يوما فى بعض أسفاره ، وهى بعدُ فتاة مرحة لعوب ، دقيقة الجسم ، شديدة النشاط فقال رسول الله للناس :

— تقدموا .

فتقدموا ، فقال لعائشة :

— تعالى حتى أسابقك . .

فتسابقا ، فسبقته عائشة ، فسكت ولم يتذمر ..

فلما سمنت عائشة وزاد وزنها قليلا ، وكانوا فى سفرة أخرى ، سابقها فسبقها فأخذ يضحك و يقول :

— هذه بتلك ..

* * *

غيرتها من خديجة

وكانت عائشة تغار من أم المؤمنين خديجة رضى الله عنهـا ، غيرة شديدة ، فقد كان رسول الله لا يكف عن ذكرها فقالت له يوما :

— هل كانت إلا عجوزاً بدلك الله خيرا منها ؟

فقال لها مغضبا : لا والله ما بدلنى الله خيرا منها، آمنت بى إذ كفر بى الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء . .

ولم يتزوج رسول الله بكراً غير عائشة ، ولم يكن زواجه بها مقصودا فى أول الأمر حتى رغبته فيها خولة بنت حكيم ، وذلك بعد وفاة خديجة رضى الله عنها ، ثم وجد رسول الله فى زواجه بها مكافئة لاخلاص أبى بكر صديقه وأكبر المخلصين والذائدين عن دعوته ..

وتوفى رسول الله عنها وهى ابنة عشرين سنة ، وكانت فقيهة راوية للشعر عالمة بالحديث ، ذات حظ من رسول الله وميل إليهـا ، وكانت لها عليه جرأة

و إدلال ، وانتقلت هـذه الجرأة والادلال بعده حتى وقفت من سياسة الخليفة الثالث موقف المنتقد ، وحتى حاربت عليا يوم الجمل . .

ولم تحمل عائشة من رسول الله ولدا ، ولو حملت ولداً لتغير وجـه التاريخ ، وتوفيت سنة سبع وخمسين للهجرة وعمرها أربع وستون سنة ، ودفنت بالبقيع وصلى عليها المسلمون ليلا ، وأمهم أبو هريرة ، ونزل فى قبرها خمسة من أهلها ، وذلك لسبع عشرة خلت من شهر رمضان من السنة المذكورة . .

الفصل الثالث

أسباب الخصومة

بين على وعائشة رضى الله عنهما

الأسباب الأولى

يذهب بعض المؤرخين إلى أن الأسباب الأساسية للاختلاف الذى وقع بين على وعائشة رضى الله عنهما ، يعود فى أسبابه الأولى إلى ألوان من سوء التفاهم وقعت بينها و بين فاطمة بنت محمد صلوات الله عليهما . . . ذلك أن رسول الله تزوج عائشة ، أو خطبها بعد وفاة أم المؤمنين خديجة ، وأقامها مقامها فى البيت وفاطمة بنت خديجة فأصاب فاطمة ما يصيب سواها من البنات حين يتزوج والدهن بعد وفاة أمهن . وكان من أثر هذا أن دب الخلاف الرقيق بين الزوجة الجديدة الجميلة ، والبنت المحببة المفضلة ، وهذا شىء ممزوج فى النفوس البشرية لا سبيل إلى تلافيه أو رفعه ، لأن الابنة تكره ميل أبيها لامرأة غريبة هى ضرة لأمها ، ولما كانت الأم ميتة ، فقد ورثت فاطمة عداوة الزوجة الميتة لضرتها الحية ...

واتفق أن رسول الله أحب عائشة ومال إليها ، أكثر من بقية أزواجه ، فازداد ما عند فاطمة ، وأكرم رسول الله فاطمة إكراماً عظيما ، أكثر مما كان الناس يتوقعونه ، وأكثر من إكرام الرجال فى ذلك العهد لبناتهم حتى خرج بها عن حدب الآباء للأولاد ، فقال بمحضر الخاص والعام مرارا لا مرة واحدة ، وفى مقامات مختلفة لا فى مقام واحد ، « إنها سيدة نساء العالمين وإنها عديلة مريم ، وأنها اذا مرت فى الموقف نادى مناد من جهة العرش : يا أهل الموقف غضوا أبصاركم كى تعبر فاطمة بنت محمد » ..

وكم قال : « يؤذينى ما يؤذيها ، ويغضبنى ما يغضبها ، وانها بقية منى يريبنى ما رابها » فكان هذا وأمثاله يوجب زيادة العتب عند الزوجة ، حسب زيادة التعظيم والتبجيل ، والنفوس البشرية تقلق لما هو دون هذا فكيف هذا ..

موقف على

ثم حصل عند بعلها ما هو حاصل عندها ، أعنى عليا رضى الله عنه ، فقد كانت فاطمة مثلا تحدثه ليلا عن عائشة ، تعتب عليها ، وتشكو منها ، ويغشاها نساء المدينة وجيران بيتها فينقلن اليها كلاما يقولن إنهن سمعنه من عائشة ، ثم يذهبن الى بيت عائشة فينقلن اليها كلاما عن فاطمة ، وكما كانت فاطمة تشكو الى بعلها ، كانت عائشة تشكو أمرها الى أبيها ـ أبى بكر ـ اذ لم تكن تجرؤ أن تنقل هذا إلى رسول الله وهى تعرف حبه لفاطمة وحدبه عليها ، فكان ان وقعت الوحشة بين الرجلين ومن انحرف عن إنسان انحرف عن أهله وأولاده .

ثم كان من أمر القذف ما كان ، ولم يكن على من القاذفين ، ولـكنه كان من المشيرين على رسول الله بطلاق عائشة ، وقال له لما استشاره رسول الله :

ـ ان هى إلا شسع نعلك . .

وقال له أيضا : سل الخادم وخوفها ، وان أقامت على الجحود فاضربها . .

و بلغ عائشة هذا الـكلام كله ، وسمعت اضعافه مما جرت عادة الناس أن يتداولوه فى مثل هـذه الحالة ونقل إليها النساء كلاما كثيرا عن على وفاطمة وكيف أظهرا الشماتة جهاراً وسراً فتفاقم الأمر وغلظ . .

ثم إن رسول الله رجع إليها بعد نزول القرآن ببراءتها فكان منها ما يكون من الإنسان ينتصر بعد قهر ، و يستظهر بعد أن غلب ، و يبرأ بعد أن أتهم، من بسط اللسان وفلتات القول ، إظهارا لانتصارها و إعلاناً لفشل خصومها ...

و بلغ كل هذا علياً وفاطمة فاشتدت الحال وغلظت، وطوى كل من الفريقين قلبه على الموجدة لصاحبه . . ثم كان بينها و بين على فى حياة رسول الله أقوال تقتضى تهيج مافى النفوس ، ثم اتفق أن فاطمة ولدت أولاداً كثيرة بنين و بنات ولم تلد عائشة ولداً، وكان رسول الله يقيم بنى فاطمة مقام بنيه، فكان هذا يثيرها وتتمنى من الله لو يعطيها ولداً لرسول الله يقوم منه مقام غير أبنائه . .

ولما ولد لرسول الله إبراهيم من مارية القبطية أظهر على بن أبى طالب سروره وكان يتعصب لمارية ويقوم بأمرها عند رسول الله ، وكل هذا كان مما يوغر صدر عائشة عليه و يوكد ما فى نفسها منه ...

فى أثناء المرض

و بقيت الأمور على ما هى عليه وفى النفوس ما فيها ، حتى مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المرض الذى توفى فيه ، وكانت فاطمة وعلى يريان أن يمرضاه فى بيتهما ، وكذلك كان أزواجه كلهن ، فمال إلى بيت عائشة بمقتضى المحبة القلبية التى كانت لها دون سواها ، وكره أن يزاحم فاطمة و بعلها فى بيتهما ، فلا يكون عنده من الانبساط لوجودهما ما يكون إذا خلا بنفسه فى بيته و بيت من يميل إليه بطبعه ، وعلم أن المريض يحتاج إلى فضل مداراة ونوم و يقظة وانكشاف وخروج ، فكانت نفسه إلى بيته أسكن منها الى بيت صهره و بنته ، فانه إذا تصور حياءهما استحيا هو أيضا منهما ، وكل واحد يحب أن يخلو بنفسه و يحتشم الصهر والبنت ، ففضل بيت عائشة على سواها ، وثقل مرض رسول الله كما هو معلوم ، وكان على يظن أن أحداً لن ينازعه الأمر ، ان نزل برسول الله حادث ، فلما أمر رسول الله أبا بكر أن يصلى بالناس ، وأن يقوم مقامه فى الصلاة منهم ، نسب على إلى عائشة أنها أمرت بلالا مولى أبيها أن يأمره — أى أبى بكر — فليصل بالناس ، لأن رسول الله قال فقط « ليصل بهم أحدهم » ولم يعين ، — وهو مايذهب إليه على — فصلى أبو بكر فى الناس ، فكان قيامه مقام رسول الله فى الصلاة مما احتج به عمر بن الخطاب فى السقيفة أمام الأنصار ، على أن رسول الله « أراده على ديننا فكيف لا نرضاه على دنيانا » .

وهذه تهمة يقول على ان عائشة صاحبتها ، وأن رسول الله لم يسم أحداً من المسلمين للصلاة بالناس ، وكان على يذكرهذا لأصحابه فى خلواته كثيراً ، و يتهم

حفصة زوج رسول الله و بنت عمر بن الخطاب بأنها هى الأخرى كانت على علم بالأمر ، وأنها وعائشة تبادرتا إلى تعيين أبو يهما . . وكان ما كان من بيعة أبى بكر بسبب هذه اللعبة التى لعبتها عائشة . وكانت هذه الحال عند على أعظم من كل عظيم وهى الطامة الكبرى والمصيبة العظمى فتظلم إلى الله منها . وجرى له فى تخلفه عن البيعة ما هو مشهور حتى بايع ، واستظهرت عائشة بولاية أبيها وعظم شأنها ...

وابن الحديد إذ يروى ما قصصناه من قصة الخلاف عن أستاذه أبى يعقوب يوسف بن اسماعيل يقول : انه لما سأل أستاذه عما ورد فى كلامه بشأن قيام أبى بكر بالصلاة بالناس أثناء مرض رسول الله قال له : هذا كلام يقوله على .. وأما الأخبار التى وصلت إلينا فتقول : ان رسول الله عينه ... أى أمر أبا بكر بالصلاة بالمسلمين ...

بعد وفاة فاطمة

ولما ماتت فاطمة جاء نساء رسول الله كلهن إلى بنى هاشم فى العزاء إلا عائشة فانها أظهرت مرضاء ولزمت بيتها .. ثم بايع على أباها ، فسرت عائشة بذلك ، وأظهرت من الاستبشار بتمام البيعة واستقرار الخلافة و بطلان منازعة الخصم مانقله الناقلون الى على، واستمرت الأمور على هذا مدة خلافة أبيها وخلافة عمر وعثمان ، والقلوب تغلى ، وكلما طال الزمان على على تضاعف وجده وعتبه ، و باح فى بما نفسه ، الى أن قتل عثمان ، وكانت عائشة ممن ألبّ عليه وحرض، ولما

سمعت بمقتله أملت أن تكون الخلافة فى طلحه وهو نسيبها ، فعدل القوم عنه الى على ، فلما سمعت ذلك صرخت :

— واعثماناه ... قتل عثمان مظلوما ..

وثار ما فى نفسها حتى تولد من ذلك يوم الجمل ...

عثمان وعائشة

ولقد أجمع كل من صنف فى السير والاخبار أن عائشة كانت من أشد الناس على عثمان إبان ولايته وفى أواخرها حتى أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله فنصبته فى منزلها وكانت تقول للداخلين إليها :

ـ هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبل وعثمان قد أبلى سنته . . قالوا وأول من سمى عثمان « نعثلا » عائشة . . والنعثل الكثير شعر اللحية والجسد . .

وروى المدائنى فى كتاب الجمل : انه لما قتل عثمان كانت عائشة بمكة و بلغ قتله إليها وهى بشراف ، فلم تشك أن طلحة صاحب الأمر . وقالت : بعداً لنعثل ... إيه صاحب الاصبع... ـ وكانت إصبع طلحة مقطوعة فى معركة أحد لما كان يدافع عن رسول الله ـ .. ايه أبا شبل ... ايه يا ابن عم... لكأنى أنظر إلى إصبعه وهو يبايع له حثو الإبل ..

وكان طلحة على ما يظهر ينتظر أن يبايع له الناس . حتى انه بعد مقتل عثمان أخذ مفاتيح بيت المال وأخذ نجائب كانت لعثمان فى داره ، ثم لما فسد أمره دفعها إلى على ...

و يقول أبو مخنف الأزدى : ان عائشة لما بلغها قتل عثمان وهى بمكة انقلبت مسرعة وهى تقول :

ـ ايه صاحب الاصبع لله أبوك ... أما انهم وجدوا طلحة لها كفوءاً . .

فلما انتهت إلى (شراف) استقبلها عبيد الله بن أبى سلمة فقالت له :

ـ ما عندك ؟

قال : قتل عثمان .

قالت : ثم ماذا ؟

قال : ثم حارت بهم الأمور إلى خير محار فبايعوا علياً .

فقالت : لوددت أن السماء انطبقت على الأرض ان تم هذا .. ويحك انظر ماذا تقول ... ؟

قال : هو ما قلت لك يا أم المؤمنين ..

وفى رواية أخرى أنها لما عرفت بمقتل عثمان ومبايعة على وكانت تنوى النزول إلى المدينة لمساعدة طلحة كما يظهر ، أمرت برد ركائبها الى مكة وراحت وهى فى طريقها إليها تخاطب نفسها وتقول : قتلوا ابن عفان مظلوماً ..

فقال لها من كان يسمعها :

ـ ألم أسمعك تقولين أبعده الله... وقد رأيناك من أشد الناس عليه . .

فقالت : كان ذلك.. ولكنى نظرت فى أمره فرأيتهم استتابوه حتى اذا تركوه كالفضة البيضاء أتوه صائما محرما فى شهر حرام فقتلوه .

الطلب بدم عثمان

فى المصادر الموثوقة أن طلحة والزبير بن العوام كتبا إلى عائشة وهى بمكة :
« ان خذلى الناس عن بيعة على واظهرى الطلب بدم عثمان .. »

وحملا الكتب مع ابن أختها عبد الله بن الزبير ، فلما قرأت الكتب أظهرت الطلب بدم عثمان وكانت أم سلمة زوج النبى بمكة فى ذلك العام وهى كما هو معروف زعيمة الحزب المنافس لعائشة والمؤلف من زوجات النبى المعارضات لعائشة . فلما رأت صنع عائشة قابلتها بنقيض ذلك وأظهرت موالاة على ونصرته.

ويقول أبو مخنف : جاءت عائشة إلى أم سلمة تساءلها الخروج للطلب بدم عثمان فقالت لها :

ـ يا بنت أبى أمية ؟ أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله وأنت كبيرة أمهات المؤمنين وأنت ... وأنت ...

فقالت أم سلمة : لأمر ما قلت هذه المقاله ...

فقالت عائشة : ان عبد الله بن الزبير أخبرنى أن القوم استتابوا عثمان . فلما تاب قتلوه صائما فى شهر حرام وقد عزمت على الخروج إلى البصرة ومعى الزبير وطلحة فاخرجى معنا لعل الله يصلح هذا الأمر على أيدينا وبنا ...

فقالت أم سلمة : انك كنت بالأمس تحرضين على عثمان ، وتقولين فيه أخبث القول ، وانك لتعرفين منزلة على عند رسول الله ، فأى خروج تخرجين بعد هذا ؟

فقالت عائشة : انما أخرج للاصلاح بين الناس ، وأرجو فيه الأجر انشاء الله .

فقالت أم سلمة : انت ورأيك .

فانصرفت عائشة عنها ، وكتبت أم سلمة بما قالت وقيل لها الى على . .

الفصل الرابع

بيعة علي بن أبي طالب

واختلاف المصادر في اخبارها

وصف البيعة

يقول ابن الأثير في وصف البيعة وفي حوادث سنة خمس وثلاثين : أنه لما قتل عثمان أجمع أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير فأتو عليا فقالوا له :

ـ انه لابد للناس من امام .

قال : لا حاجة لي بأمركم فمن اخترتم رضيت به .

فقالوا : ما نختار غيرك .

وترددوا إليه مراراً وقالوا له في آخر ذلك :

ـ انا لا نعلم أحداً أحق به منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال : لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً . .

فقالوا : ما نحن بفاعلين حتى نبايعك . .

قال : ففي المسجد فان بيعتي لا تكون خفية . . . ولا تكون إلا في المسجد . .

وكان فى بيته .. وقيل فى مكان آخر ، فخرج إلى المسجد وعليه إزار وطاق وعمامة خز ، ونعلاه فى يده متوكئا على قوس ، فبايعه الناس وكان أول من بايعه من الناس طلحة بن عبيد الله ، و بايعه الزبير بن العوام ، وقال لهما :

— إن أحببتما أن تبايعانى ، وأن أحببتما بايعتكما .

فقالا : بل نبايعك . .

وقالا بعد ذلك : انا فعلنا ذلك خشية على نفوسنا ، وعرفنا أنه لا يبايعنا ،

وجاءوا بسعد بن أبى وقاص ـ وهو من الشورى ـ فقال له على :

ـ بايع ...

قال : لا .. حتى يبايع الناس . . والله ما عليك منى بأس .

فقال على : خلوا سبيله .

وجاءوا بابن عمر بن الخطاب فقالوا : بايع .

فقال : لا . . حتى يبايع الناس .

فقال على : ائتنى بكفيل .

فقال ابن عمر ـ وهو عبد الله ـ لا أرى كفيلا .

فقال الأشتر لعلى : دعنى أضرب عنقه .

فقال على : دعوه أنا كفيله . . . أنك ما علمت لسىء الخلق صغيرا وكبيرا . . .

و بايعته الأنصار إلا نفرا يسيرا ، منهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، ومسلمة بن مخلد ، وأبو سعيد الخدرى ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ، وزيد بن ثابت ، وكانوا من أنصار عثمان .

وهرب النعمان بن بشير إلى الشام ، وأخذ معه أصابع نائلة امرأة عثمان التى

قطعت وهى تدافع عن بعلها ، وقميص عثمان الذى قتل فيه ، فكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه الأصابع على منبر دمشق ، فإذا رأى ذلك أهل الشام ازدادوا غيظا وجدوا فى أمرهم ..

الحالة فى المدينة

وكانت الحالة الداخلية فى المدينة قبيل البيعة ، مضطربة قلقة ، فقد غلب عليها زعماء الأمصار الذين ثاروا على سياسة عثمان وحصروه حتى قتلوه ، وكان المصريون يريدون عليا ، والكوفيون الزبير ، والبصريون طلحة ؟ وظلت المدينة بعد مقتل عثمان خمسة أيام وأميرها الغافقى بن حرب ، يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر ، فلا يجدونه ، ووجدوا طلحة فى حائط ووجدوا سعدا والزبير قد خرجا من المدينة ، ووجدوا بنى أمية قد هربوا إلا من لم يطق الهرب ، وهرب سعيد والوليد ومروان بن الحكم إلى مكة وتبعهم غيرهم ، فأتى المصريون عليا فباعدهم ، وأتى الكوفيون الزبير فباعدهم ، وأتى البصريون طلحة فباعدهم ، وكانوا مجتمعين على عثمان ، مختلفين فيمن يلى الخلافة منهم ، فأرسلوا إلى سعد بن أبى وقاص يطلبونه فقال :

— انى وابن عمر ابن الخطاب لا حاجة لنا فيها ... أى الخلافة .

فأتوا — أى زعماء الأمصار — ابن عمر ابن الخطاب فلم يجبهم ، فبقوا حيارى ، وقال بعضهم لبعض :

— لئن رجع الناس إلى أمصارهم — وكان ذلك وقت الحج — بغير إمام لم نأمن الاختلاف وفساد الأمة ، فجمعوا أهل المدينة ، فطلبوا منهم أن يبايعوا

وهددوهم إن لم يفعلوا ، أن يقتلوا عليا وطلحة والزبير ، فغشى الناس عليا فقالوا :

— نبايعك فقد ترى مانزل بالإسلام ، وما ابتلينا به من بين القرى .

فقال: دعونى والتمسوا غيرى.

فخوفوه الفتنة والتفرقة ، حتى أجابهم واتعدوا الغد ، وتشاور الناس فيما بينهم وقالوا :

— ان دخل طلحة والزبير فقد استقامت .

فأرسلوا من جاء بهما إلى المسجد بالقوة ، فبايعا ، واجتمع أهل المدينة على على ، وكانت المبايعة يوم الجمعة لخمس بقين من ذى الحجة سنة ٣٥ للهجرة(١) .

ولما عاد على الى بيته بعد الخطبة والمبايعة ، دخل عليه طلحة والزبير فى عدد من الصحابة فقالوا :

— يا على إنا قد اشترطنا اقامة الحدود ، و إن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى قتل هذا الرجل ـ أى عثمان بن عفان ـ

فقال على : يا إخوتاه انى لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ، وقد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم مواليكم ، فهل ترون موضعا لقدرة على شىء مما تريدون ؟.

قالوا : لا ..

فطلب منهم أن يهدأوا ريثما تستقر الحال ، واشتد على على قريش وحال بينهم و بين الخروج من المدينة ، و بعد ما هرب بنو أمية عنها ..

---

(١) ابن الأثير .

ولا تختلف رواية الطبرى كثيرا عن رواية ابن الأثير ، فهو يؤكد تردد على وتخويف الناس له الفتنة والخلاف ، وينتهى الأمر منه بالقبول ، والذهاب الى المسجد ومبايعة الناس له ، وفيهم طلحة والزبير .

وطلحة هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله ، أحد الشورى ، وكان له فى الدفاع عن رسول الله يوم أحد أثر عظيم ، وشلت بعض أصابعه يومئذ ، حين وقى رسول الله بيده من سيوف المشركين .

والزبير هو أبو عبد الله الزبير بن العوام ابن خويلد وأمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم ، عمة رسول الله وأحد الشورى ، وممن ثبت مع رسول الله يوم أحد وأبلى بلاء عظيما .

ولقد أجمع المؤرخون على أن طلحة والزبير كانا ممن ألب على عثمان وانتقد سياسته ، خصوصا طلحة ، فلما بايعا عليا كانا ينتظران منه خيرا كثيرا ، فلا يعمل عملا بغير مشورتهما ورأيهما ، يقاسمهما سلطانه ، ويتوزع وإياهما أمصار الخلافة ، فلما وجداه بعد البيعة لا يبالى بهما ولا يسألهما ، أخذ الزبير يقول :

— بايعت عليا بيدى لا بقلبى ..

وكان يدعى تارة أنه أُكره ، وأخرى أنه ورّى فى البيعة توريه ونوى دخيلة . .

وكان طلحة مثله إنكاراً للبيعة بعد أن بايع ، ومثله رغبة فى الخلافة أو الإمارة(١)

وكانت بيعة على إذا قيست ببيعة من سبقه من الخلفاء على شىء من الضعف والاضطراب . فقد بويع أبو بكر عن رضا من الصحابة الذين اجتمعوا بالمدينة،

---

(١) أنظر خطبة على فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد جزء ١ ص ٧٧ .

وإذا كان على قد تأخر عن البيعة أياماً أو أسابيع . فانه عاد فبايع ولم يخالف وأما بيعة عمر فكانت تامة عامة ، وكانت بيعة عثمان وفاقا لقانون الشورى الذى سنه عمر بن الخطاب وأمر باقراره . .

وأما بيعة على فقد كانت والمدينة مليئة بالفوضى والقلق ، غلب عليها ثوار الامصار فكانوا مصدر الأمر والنهى ، وكان أكثر الصحابة خارج المدينة ؛ ولم يكن بالمدينة منهم سوى عدد قليل ، على رأسهم طلحة والزبير ؛ وتمت بيعة على بأغلبية الأصوات لا بالاجماع . .

والواقع أن موقف أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى هذه الفترة القلقة من الزمن كان كثير الدقة ، شديد الخطر ، جليل الأثر ، عظيم الخطورة ، فقد أحس رضى الله عنه بخطوره الموقف ، وتمزق الكلمة ، وظهور الشقاق بين الجماعات الإسلامية المختلفة ؛ وراح يطلق نظره فى الماضيات من الأعوام، فإذا به يجد أن أحداً من الخلفاء السابقين لم يتول الخلافة ، والامصار ثائرة والفتنة قائمة ورجال الامصار يسيطرون فى المدينة ، ويمضون الأمر فيها ، فرغب فى التريث قليلا ريثما تهدأ العاصفة ، وينجلى الغبار ، ولكن الاصطبار كان فوق طاقة زعماء الأحزاب فى الامصار الذين كانوا فى المدينة ، فقد راحوا يبحثون الأمر فيما بينهم وقال بعضهم لبعض :

ـ يمضى قتل عثمان فى الآفاق والبلاد ، فيسمعون بقتله ، ولا يسمعون انه بويع لأحد بعده ، فيثور كل رجل منهم فى ناحية ، فارجعوا إلى على فلا تتركوه حتى يبايع ، فيسير مع قتل عثمان بيعة على ، فيطمئن الناس ويسكنون .

فرجعوا إلى على وجاء الأشتر فقال له :

ـ ابسط يدك أبايعك .

فاعتذر على بما ذكره سابقاً .

فقال الأشتر : لتمدن يدك نبايعك أو لتعصرن عينك عليها ثالثة...فتردد الإمام أيضا ، فأخذ الأشتر يخوفه الفتنة ، ويذكر له انه ليس أحد يشبهه ، وأنه أفضل من غيره ، وأن المصلحة الإسلامية العامة تقضى بهذه المبايعة السريعة ، مخافة انتشار مقتل عثمان فى الآفاق دون ما بيعة لأحد من المسلمين ، فيثور كل عامل فى ولايته ، وتتمزق الامصار ، وتتفرق الجماعة ، فرضى الإمام عندئذ ، ومد يده إلى الاشتر فبايعه ومن معه ، وسبقهم طلحة وكانوا قد أتوا به معهم فبايعه ، وفعل الزبير مثل زميله ، وكانت بيعتهما ضرورية فى نظر الإمام، لأنهما شريكاه فى الشورى ، وليس من يطمع بالخلافة سواهما ، ولهما بين الثوار شيعة تؤيدهما وتشد ازرهما ، وقد وعداها بالعطاء والنوال ان وصلا إلى الخلافة وتمكنا من الملك والسلطان .

وروى الطبرى فى بيعة طلحة والزبير ، أن الإمام دعاهما إلى البيعة فترددا أول الأمر ، فسل الاشتر سيفه ، وقال لطلحة .

ـ لتبايعن أو لأضربن به ما بين عينيك .

فبايعه وبايعه الزبير .

وتخلف عن البيعة جمع من الأنصار منهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك وزيد بن ثابت ، والنعمان بن بشير وغيرهم، وكانوا يميلون إلى عثمان ويتعصبون لبنى أمية ، وهرب قوم إلى الشام ولما يبايعوا علياً ، وهم عامة بنى أمية ومن معهم .

الفصل الخامس

هاشم وأمية

خصومة توارثوها من الجاهلية واشعلوها فى الإسلام

سياسة على بعد البيعة :

نحن الآن وفى هذه الفترة من الزمن وقبيل نشوب الخلاف المسلح بين على وعائشة أمام ثلاثة أحزاب قد استقرت واشتهرت وأصبحت لها أغراضها السياسية ومراميها البعيدة ؛ بحيث يستطيع المؤرخ المعاصر بحثها ومعرفة أغراضها وآمالها، فهذا حزب الهاشميين قد تألق نجمه بعد أفول ؛ بخلافة على بن أبى طالب ، وهؤلاء أنصاره يستعدون للدفاع عنه والذود فى سبيله ؛ ولهم غاية معروفة وسياسة مقررة هى تثبيت على فى الخلافة ؛ ومحاربة من يناوئه ويقف فى سبيله . . .

وهذا حزب الأمويين وعلى رأسهم معاوية حاكم الشام يعمل لتوطيد مركزه ومركز عائلته باسم الدفاع عن عثمان والاستفادة من اخطاء الحكومة الهاشمية الجديدة . .

وأما الحزب الثالث فكان أضعف الأحزاب الثلاثة خطرا وشأنا وهو حزب عائشة أم المؤمنين . فهذه السيدة المغامرة تعود إلى المرح السياسى لتلعب دوراً خطيرا ما ندرى لو وفقت فيه ما كان يكون مصير الاسلام والعربية . . ولسنا

من الذين يقولون بأن سياسة على بن أبى طالب الداخلية هى التى خلقت هذه الأحزاب وكونتها ، فالحزب الأموى كان قد تم تكوينه فى عهد عثمان ؛ لما استقر معاوية فى الشام . وكان حزب عائشة لابد من ظهوره إذا نجح على وتولى الخلافة ؛ كما أن الحزب الهاشمى كان سيكون حزب المعارضة لو استقرت الخلافة لطلحة أو للزبير بن العوام . . . وإذاً فالسياسة الداخلية التى اتبعها الخليفة الرابع فى معالجة الموقف الحزبى قد استعجلت ظهور هذه الأحزاب التى كان لابد أن تظهر بمظهرها الحقيقى وأغراضها المعروفة المعلومة . . .

كان من سياسة على بن أبى طالب بعد أن ولى الخلافة عزل عمال عثمان جميعاً ؛ وقد أبى العمل بنصيحة أنصاره من التريث والأناة ريثما تهدأ العاصفة ويستقر الناس ، كما استفتح ولايته باسترداد الاقطاعات التى كان عثمان قد منحها لبعض ذوى قرباه وأنصاره ؛ وردها إلى بيت المال واتبع فى توزيع الأرزاق القواعد التى سنها عمر بن الخطاب وسار عليها فى خلافته .

وكان من المفروض أن يغضب الذين خسروا هذه الاقطاعات ؛ وكان من المقرر أن يثوروا عليه ؛ وأن ينضموا إلى خصومه ؛ وأن يعملوا لحربه وإنكار بيعته . .

والواقع أننا أمام نقطة ضعف فى سياسة أمير المؤمنين ؛ فقد رأيناه مثلاً حين دعاه من دعاه من الصحابة إلى اقرار العدل فى قتلة عثمان يدعوهم إلى التريث حتى تستقر الأحوال وتهدأ الأمور، ونراه فى الوقت نفسه ؛ لايتريث فى مغاضبة أصحاب الاقطاعات ؛ بل يقرر ردها إلى بيت المال ؛ كما نراه يرسل عماله إلى الأطراف مكان عمال عثمان ؛ فلا يأخذ بنصيحة عبد الله بن عباس الذى سأله التريث فى أمر معاوية حتى يستقر الأمر ؛ وهذه سياسة كان من حق على

أن يجرى عليها « أى سياسة الشدة » لو كان يملك زمام أصحابه ؛ أما وهو عالم بترددهم ؛ واثق من عدم استقرارهم ؛ خصوصا بعض الصحابه منهم ؛ فقد كان من حسن السياسة أن يساير ابن عباس فى نصيحته وأن يأخذ بسياسته، آخذاً الناس بالحسنى كما فعل رسول الله قبله ، لما أخذ كفار العرب باللين واللطف حتى ألان شدتهم وقضى على خصوماتهم ... هذا ما فعله رسول الله مع الكفار والمشركين من خصومه ؛ فلماذا لم يأخذ على بسياسة رسول الله هذه مع المسلمين من خصومه السياسيين . . . ؟ ؟ .

ولقد حاول على فى أول حكمه إخراج العرب إلى مياههم ؛ وكانوا نزلوا المدينة مع ثوار الامصار عند الفتنة ؛ وكان كثير منهم لا يزال فى المدينة فلما لم يوفق . رجع إلى بيته قلقا ؛ فدخل عليه طلحة والزبير و بعض أصحاب رسول الله فسأله طلحة أن يرسله إلى البصرة فيكون عدة له وقوة ، وقال: الزبير دعنى آت الكوفة فأكون على الخيل معك وعلى عدوك ، فقال على: حتى انظر فى ذلك . . ومن المعلوم أن جماعة طلحة كانت من أهل البصرة ؛ وجماعة الزبير كانت فى الكوفة، فلو نزل كل منهما فى جماعته وأنصاره ، لعظم شأنهما وازداد خطرهما ، وهو ما كان يقلق عليا و يقض مضجعه . . .

موقف على من معاوية

و يحدثنا ابن عباس أنه نصح عليا بالابقاء على معاوية وعمال عثمان وتركهم وشأنهم حتى يهدأ الأمر ، ويستقر الحال وتأتيه بيعتهم ، فأبى ورفض .

وفعل المغيرة بن شعبة مثل ذلك فنصح عليا أولا بما نصحه به عبد الله بن عباس فلما رفض على قبول رأيه ، عاد المغيرة فتحول إلى رأى على مداهنة وتقرباً . . .

وقال عبد الله بن عباس وهو يحاور عليا :

« ان معاوية وأصحابه أهل دنيا ، ان أبقيتهم فى مناصبهم لايبالون من ولى هذا الأمر ، و إن تعزلهم يقولون « أخذ هذا الأمر بغير شورى ، وهو قتل صاحبنا ، و يؤلبون عليك ، ولا أمن طلحة والزبير أن ينضما الى خصومك »

فقال على : والله لا أعطيه إلا السيف (يعنى معاوية)

فقال عبد الله بن عباس : يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع ، لست صاحب رأى فى الحرب أماسمعت رسول الله يقول (الحرب خدعة) .

فقال على : بلى .

فقال ابن عباس : أما والله ، لئن أطعتنى لأصدرنهم بعد ورد ، ولا تركنهم ينظرون فى دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها فى غير نقصان عليك ولا إثم لك ..

فقال على : يابن عباس لست من هناتك ، ولا من هنات معاوية فى شىء ..

فقال ابن عباس : أطعنى والحق بمالك بينبع ، وأغلق بابك عليك ، فان العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك ، فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء القوم ليحملنك الناس دم عثمان غدا . . .

فأبى على أن يعمل برأى ابن عباس وقال له :

ـ تسير إلى الشام فقد وليتكها .

فقال ابن عباس : ما هذا برأى ، معاوية رجل من بنى أمية ، وهو ابن عم عثمان وعامله ، ولست آمن أن يضرب عنق بعثمان ، وأن أولى ما هو صانع أن يحبسنى فيتحكم علىَّ لقرابتى منك ، ولكن اكتب الى معاوية فمنه وعده .

فقال على : لا والله لا كان هذا أبداً ... .

وكذلك نرى أن علياً لم يأخذ برأى أحد من المخلصين له ، وتكلف رأيه فى سياسته الداخلية ، فكان ما كان من حديث الفتن والخلافات المقبلة ..

وكان المغيرة يقول بعد اجتماعه مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب :

ـ نصحته فلما لم يقبل غششته ، وخرج فلحق بمكة ...

عمال على وفشلهم

فلما كانت سنة ست وثلاثين للهجرة فرّق على عماله على الأمصار . فبعث عثمان بن حنيف على البصرة ، وعمارة بن شهاب على الكوفة ، وعبيد الله بن عباس على اليمن ، وقيس بن سعد الأنصارى على مصر ، وسهل بن حنيف على الشام ، فأما سهل فانه لما وصل إلى تبوك ردته خيل لأهل الشام ، فلم يصل إلى دمشق ورجع إلى على ، وأما قيس بن سعد فوصل إلى مصر ، وانقسم أهلها جماعة معه وجماعة عليه ، وأما عثمان بن حنيف فلم يرده أحد عن دخول البصرة ، ولم يجد لابن عامر وهو أميرها رأيا فقد تركه وشأنه لا يعارضه ولا يحار به ، ولكن الناس افترقوا فيها ، اتبعت جماعة خصوم على ، واتبعت فرقة علياً ، وقالت جماعة ثالثة : ننتظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا . . وأما عمارة بن شهاب فلم يصل إلى الكوفة ، ورده بعض أهلها قائلين : إنهم لا يريدون بأميرهم بديلا ..

وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن فلما عرف أميرها يعلى بن منبه بقدومه جمع كل ما عنده من مال المسلمين وذهب إلى مكة ..

فلما أتت علياً أخبار عماله ، وعـلم أن عامله على الشام لم يستطع دخولها ، وأن عامله على الـكوفة لم يوفق ، وأن عماله الباقين قد اختلف فيهم الناس دعا طلحة والزبير فقال لهما :

ـ إن الأمر الذى كنت أحـذركم قد وقع ، وأن الذى قد وقع لا يدرك إلا باقامته ، وأنها فتنة كالنار كلما سعرت ازدادت قوة واستعاراً . .

فقالا له : ائذن لنا نخرج من المدينة .

فقال : سأمسك الأمر ما استمسك فاذا لم أجد بداً فآخر الداء الـكى ...

وكتب إلى معاوية وإلى أبى موسى وكان يلى الـكوفة منـذ أيام عثمان ، فـكتب إليه أبو موسى بطاعة أهلها و بيعتهم ، و بين الـكاره منهم للذى كان ، والراضى ومن بين ذلك .

وأما معاوية فقـد أخر رسول على ثلاثة أشهر ثم أنفذه فى كتاب أبيض ، لا كلام ولا جواب فيه ، فلما فض على الـكتاب ولم يجد فيه شيئا قال للرسول :

ـ ما وراءك ؟

قال الرسول : ورائى أنى تركت قوما لا يرضون إلا بالقود .

قال على : ممن ؟

قال الرسول : منك .. وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان ، وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق . .

قال على : أمنى يطلبون دم عثمان .. ألست موتوراً كترة عثمان ، اللهم انى أبرأ إليك من دم عثمان .

ولما رأى على موقف معاوية علم أن خصمه لن يبايعه حتى يحاربه ، فأخذ يتجهز للحرب ، واستأذنه فى هذه الأثناء طلحة والزبير فى العمرة فأذن لهما ، فلحقا بمكة ، ودعا على محمد بن الحنفية ابنه فدفع إليه اللواء ، وولى عبد الله بن عباس ميمنته ، وعمر بن أبى سلمة أو عمرو بن سفيان بن عبد الأسد ميسرته ، ودعا نسيباً لأبى عبيدة عامر بن الجراح فولاه مقدمته ، واستخلف على المدينة قثم بن العباس ، ولم يول ممن خرج على عثمان أحداً ، وكتب إلى أمرائه فى الأمصار أن يندبوا الناس إلى أهل الشام ...

الخلاف بين هاشم وأمية

والواقع أن الاختلاف بين على وهو هاشمى ، وعثمان وهو أموى ، وكان لينا رقيقاً لا يتجاوز النقد السياسى المفروض أن يقع بين الذين يشتغلون بالسياسة ، ثم الاختلاف بين على ومعاوية بعد مقتل عثمان ومعاوية يمثل الحزب الأموى فى الإسلام لم يكن إلا صورة مكبرة للخلاف القديم العهد ، البعيد المدى بين الهاشميين والأمويين فى العهد الجاهلى وقبل ظهور الإسلام ...

وقد أجمع مؤرخو السلف وكتابهم ومن بحث هذه النواحى الغامضة فى تاريخ الإسلام منهم على أن هذه عداوة قديمة النسب بين عبد شمس و بين بنى هاشم ، وكان حرب بن أمية نافر عبد المطلب بن هاشم ، وكان أبو سفيان والد معاوية زعيم قريش أول ظهور الإسلام ، وقد حارب رسول الله وقاتله فى غير مكان واحد ، ثم ان رسول الله زوج علياً ابنته المحببة فاطمة ، وزوج عثمان ابنته الأخرى ، وكان اختصاص رسول الله لفاطمة أكثر من اختصاصه للبنت الأخرى ، ثم للثانية التى تزوجها عثمان بعد وفاة الأولى . .

ثم كان اختصاصه أيضاً لعلى وزيادة قربه ، وامتزاجه به واستخلاصه إياه لنفسه أكثر وأعظم من اختصاصه لعثمان ، فتباعد ما بين القلبين ، وزاد فى التباعد ما عساه يكون بين الأختين من معاتبة أو مشاجرة ، أو كلام ينقل عن إحداهما إلى الأخرى فيتكدر قلبها على أختها ، ويكون هذا سببا للعتب بين البعلين ، كما هو معروف مشهور واقع فى كل العصور ، وقد وقع بين زوجات رسول الله الكثير من هذا ، وقيل ما قطع بين الأخوين كالزوجتين ، ثم اتفق أن عليا قتل جماعة كثيرة من بنى عبد شمس فى الغزوات والحروب ، فتأكد الشنآن بينه وبين الأمويين وجماعة كبيرة من أهل مكة ، وإذا استوحش الإنسان من صاحبه استوحش صاحبه منه ، ثم مات رسول الله فصبا إلى على جماعة يسيرة لم يكن عثمان منهم ، ولا حضر فى دار فاطمة ، مع من حضر من المتخلفين عن البيعة وكانت فى نفس على أمور على الخلافة لم يتمكن من إظهارها فى أيام أبى بكر وعمر لقوة عمر وشدته وانبساط يده ولسانه .

فلما قتل عمر وجعل الأمر شورى ، واختار جماعة الشورى عثمان ، أو عدل عبد الرحمن بن عوف بالخلافة عن على إلى عثمان ، لم يملك على نفسه ، فأظهر ما كان كامنا ، وأبدى ما كان مستورا ، ولم يزل الأمر يتزايد حتى زاد ما بينهما وتفاقم ، ومع ذلك فلم يكن على لينكر من سياسة عثمان إلا منكراً ، ولا ينهاه إلا عما تقتضى الشريعة نهيه عنه ، وكان عثمان مستضعفا فى نفسه ، رخواً قليل الحزم ، وسلم أمره إلى مروان يصرفه كيف شاء ، فلما انتقض على عثمان أمره استصرخ عليا ولاذ به ، وكان الأمر قد فسد فسادا لا يرجى صلاحه . .

مسألة الشورى

و يذهب قوم من المؤرخين إلى أن الشورى كانت من الأسباب المؤكدة للخلاف ، وأنها و إن كانت لونا رائعا من ألوان الحرية الفكرية ، والحكومة الديموقراطية والنظام البرلمانى الحديث الا أنها جعلت من أعضاء الشورى جماعة يعتقد كل واحد منهم أنه أهل للخلافة خليق بها . .

أقرّ عمر بن الخطاب الشورى فى ستة نفر من أصحاب رسول الله على أن يختاروا واحدا منهم للخلافة ، فاختاروا عثمان كما هو معلوم ومشهور ، ولكن بقى فى نفس كل واحد منهم أنه قد رشح للخلافة ، وأنه أهل للملك والسلطان ، فلم يزل ذلك فى نفوسهم وأذهانهم مصورا بين أعينهم ، مرتسما فى خيالاتهم نازعة إليه نفوسهم ، طامحة نحوه عيونهم، حتى كان من الشقاق بين على وعثمان ما كان، وحتى أفضى الأمر الى قتل عثمان ، ولولا ما كان يسمعه ثوار الأمصار من انتقاد جماعة الشورى لسياسة عثمان ، لما وقعت الفاجعة على النحو الذى كان ، وكان طلحة من أشد الناقمين على السياسة الأموية التى اتبعها عثمان ، وكان لا يشك أن الأمر له من بعده لسابقته وكونه ابن عم أبى بكر ، ولأبى بكر مكانته ، وكان طلحة الى هذا سمحا جوادا ، فأغرى الناس بالخليفة القائم ، واشتد عليه فى نقده وأيده الزبير ، وكان أيضا يرجو الأمر لنفسه ، ولم يكن رجاؤهما هذا الأمر دون رجاء على ، بل كان رجاؤهما أقوى ، لأن علياً اتفق له من بغض قريش وانحرافها ما لم يتفق لأحد ، وكانت قريش تحب طلحة والزبير ، لأن الأسباب الموجبة لبغضهم له لم تكن موجودة فيهما ، وكانا يتألفان قريشا فى أواخر أيام عثمان

و يعدانهم بالعطاء والافضال ، وهما عنـد أنفسهما وعند الناس خليفتان بالقوة والفعل لأن عمر نص عليهما وارتضاهما للخلافة ،و عمر بن الخطاب متبع القول، مرضى الفعال موفق مؤيد مطاع نافذ الحكم فى حياته و بعد وفاته . .

فلما قتل عثمان أراد طلحة الخـلافة وحرص عليها ، ولولا الأشتر وقوم من شجعان العرب جعلوها فى على لم تصل إليه أبداً ، فلما فاتت الخلافة طلحة والزبير فتقا ذلك الفتق العظيم على على ، وأخرجا أم المؤمنين عائشـة الى العراق . وكان من حرب الجمل ما هو معروف وما سيأتى ذكره فى حينه . ثم كانت حرب الجمل مقدمة وتمهيداً لحرب صفين ، لأن معاوية لم يكن ليفعل ما فعـل لولا طمعه بما جرى فى البصرة . ثم أوهم أهل الشام أن عليا أخطأ بمحاربة أم المؤمنين ومحاربة المسلمين وأنه السبب فى قتل طلحة والزبير . ولذلك كان الفساد المتولد عن صفين فرعا للفساد الذى تولد يوم الجمل ...

سياسة عمر فى الخلافة

وهنا تجب الإشارة إلى أمر خطير ، يجب أن يصار إلى بحثه ، والإشارة الى خطورته قبل الأخذ بغيره ، وهو أن الإسـلام دين ديموقراطى ، يصار فيه الى اختيار الخليفة من بين أفضل المسلمين ، هـذا ما فهمه أبو بكر من الإسلام وهذا ما فهمه عمر بن الخطاب ، فلما توفى رسول الله واختلف المسلمون فيما بينهم حول اختيار الخليفة أسرع عمر بن الخطاب فى (سقيفة بنى ساعدة) الى أبى بكر

فبايعه على أنه أفضل المسلمين بعد رسول الله ، و بايعه الناس من بعده ، ولم يخل الأمر من وجود بعض الساخطين على هذا الاختيار ، ولكن سيرة أبى بكر أرضت عنه الجميع ، وأيدت ما كان ينتظره الجميع من مثله فضلا واخلاصا وأمانة وخدمة عامة .

فلما أحس أبو بكر أنه لمآبه ، أخذ يدرس الموقف الانتخابى مع المهاجرين ، سأل عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وطلحة وغيرهم ، فوجد أحداً منهم لا ينكر على عمر اخلاصه ومقدرته ، ولكنهم ينكرون عليه شدته ، وقد غاب عنهم أن الإسلام كان فى أول نشأته ، وأن الشدة ضرورة ملحة فى مثل هذا العهد ، والفتوح فى أولها ، فلم يكن من حق أبى بكر وليس هناك من استقرار سياسى فى الدولة الاسلامية أن يخلق قضية اختيار الخليفة من بعده ، ليصار الى الاختلاف حولها من جديد ، والمسلمون يقفون أمام عدوهم شرقا وغربا ومن الحق أن يكونوا فى مثل هذا الموقف يداً واحدة وصفا واحداً ...

وعندئذ وأمام هذه الاعتبارات قرر أبو بكر أن يختار الخليفة المقبل للمسلمين واختاره طبعا من المهاجرين ، واختاره من هؤلاء المهاجرين الذين كانوا أقرب الناس الى رسول الله .

فلما طعن عمر بن الخطاب ، وسقط جريحاً على الأرض ، كان أول همه تسوية مشكلة الخلافة على الوجه الأصلح والأحسن ، فأدار وجهه فى الصحابة من بعده ، فوجد لكل منهم مطامحه وأغراضه وسياسته الخاصة فى تسيير الأمور ، فعلى مثلا كان يعتقد بحقه وحق أهله من بعده فى الأمر ، وهو ما كان ينكره عمر ولا يؤمن به ولولا هذا الإيمان فى على لولاه عمر الخلافة من بعده ما فى ذلك شك ولا ريب .

ثم إنه لما طعن عمر كانت الدولة الإسلامية فى حال غير حالها الأول ، فقد فتحت الفتوح ، واستقر العرب فى البلاد المفتوحة ، وأنشأوا فيها الأمصار ، وعظمت شوكتهم ، واشتد أمرهم ، فلم يكن يخشى عليهم الخذلان والاختلاف ، وارتداد عدوهم عليهم ، كما كان الحال عهد أبى بكر ، ولذلك لم يأخذ عمر برأى أبى بكر فى اختيار خلفه ، فقد وجد فى هذا الكثير من المسئولية والاستبداد فى الرأى فى وقت ليس فيه من داع ولا خطر على الدولة كما قدمنا .

وعندئذ ابتكر عمر طريقته الديمقراطية ، وهى وسط بين فرض الرأى ، وترك الاختيار لسواه ، ففرض رأيه فى تسميته جماعة من الصحابة أولى القدم والسابقة فى الإسلام ، واختارهم جميعاً من المهاجرين ، وترك لهم أن يختاروا واحداً منهم يرضونه للخلافة فى أيام ثلاثة .

وأما القول بأن عمر بن الخطاب قد أخطأ فى اختيار الشورى ، لأنه نفخ فيهم — أى رجال الشورى — روح الرياسة وحب الخلافة ، فقول مردود ، لأنه من المفروض فى المجالس البرلمانية التى تضم مئات الأعضاء ، والتى تكلف اختيار رئيس الجمهورية ، أن يكون لكل فرد من أفرادها الحق فى ترشيح نفسه إذا كانت هناك جماعة تناصره ، وتؤيده ، ولكن هذا الحق لا يعطيه امتيازاً خاصاً ، ولا مقاماً مرموقاً ، وإنما هذا يكون وفاقاً لاستعداده وشخصيته.

وعمر لما اختار الشورى وفرضها اختار رجالها من قبائل العرب ؛ فعثمان كان يمثل أمية ، وعلى كان يمثل بنى هاشم ؛ ومثل هذا يقال فى بقية رجال الشورى الذين كانوا يشكلون البطون المختلفة فى قريش .

ولا يجب إلى ذلك أن ننسى شيئاً آخر ، وهو أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان صريعاً مسجى على الأرض ، ينزف دمه منـه ، ويتزايد ضعفه ساعة بعد ساعة ، وهو يقرر السياسة الانتخابية للحكومة القائمـة بعده ، فمن الحق والحالة هذه أن نقدر موقفه هـذا ، وأن نقرر أن اختيار الشورى كان خطوة واسعة أولى فى سبيل بناء دستور عربى متين ... لو بلغ مداه لـكان من أرقى النظم الحـكومية فى العالم .

الفصل السادس

عائشة زعيمة الحزب المعارض

موقف عائشة :

ليس انا أن نحاول التهوين من موقف عائشة أم المؤمنين من هذه الأحداث السياسية الجاهمة ، فقد كانت صاحبة الفكر المدبر ، والرأى النافذ ، و إذا اجتمع أهل البصرة حولها ، وخاضوا معركة الجمل فى سبيلها ، فلتأثيرها عليهم ، ولسحرها فى نفوسهم ولهيبتها ومقامها فى مجالس الخطابة والنقاش والخصومة . . ولولاها ، ولولا وجودها فى الجيش ، إلى جانب طلحة والزبير ، لما اجتمع حول الاثنين جمع ، ولا انتظم لهما شمل ، ولا استطاعا الثبات فى مناوشة صغيرة فكيف بمعركة كبيرة . . .

و إذا كان طلحة قد وفق لاستجلاب جماعة من قريش ، فقد كان تأييد هذه الجماعة له معنوياً بحتا ، وأما إذا جد الجد ، وتكشفت أسباب الخصومة ، ولجأ خصومه للحرب والسيف ، فما كان طلحة بمستطيع الاعتماد على عدد منهم ، ولا كان هؤلاء بمؤيديه ضد على ، ولا كانوا ممن سيحملون السلاح فى سبيله وسبيل الزبير ، لولا تأييد عائشة لهما ، وذهابها على رأس الجماعة إلى البصرة ، ولعائشة مركزها المرموق ، واسمها العريض الكبير ..

ولم يكن فى الإمكان ولكل من طلحة والزبير أغراضه ومطامعه أن يستكينا إلى الهدوء والسكينة والقبول للأمر الواقع ، فقد بايعا مكرهين ما فى ذلك شك، وأقول مكرهين لأن كلا منهما كان يطلب الخلافة لنفسه ، ولكنهما لما رأيا تأزم الموقف ، واختلاف الناس ، ووجدا أنصارهما أقلية أمام أنصار على سكتا على مضض ، وأظهر الزهادة فى الولاية أول الأمر حتى لا يتهما بمقتل عثمان ؛ وحتى لا يؤخذ عليهما تطلبهما الخلافة أنهما ما أثارا الناس وأهل الأمصار وسكان المدينة على عثمان وسياسة عثمان إلا ليصلا إلى مركزه ، ويجلسا على كرسى الخلافة مكانه . .

والظاهر أنه لما فات الرجلين أمر الولاية العظمى ، طمعا فى أن يوليهما على بعض الأعمال الكبيرة ، ليكون لكل منهما من الرجال والأموال والقلاع مثل ما كان لمعاوية ، فمشيا إليه يقولان :

— هل تدرى يا على علام بايعناك ؟

فقال : نعم على السمع والطاعة ، وعلى ما بايعتما عليه أبا بكر وعمر وعثمان .

فقالا : لا .. ولكن بايعناك على أنا شريكاك فى هذا الأمر .

فقال على : لا ، ولكنكما شريكان فى القول والاستقامة والعون على العجز .

وكان الزبير لا يشك فى ولاية العراق ، وطلحة فى اليمن ، فلما استبان لهما أن عليا غير موليهما شيئا ، أظهرا التذمر والانتقاد ، فتكلم الزبير فى ملأ من الناس فقال :

ـ هذا جزاؤنا من على ، قمنا له فى أمر عثمان ، حتى أثبتنا عليه الذنب ، وسببنا

له القتل وهو جالس فى بيته وكفى الأمر ، فلما نال بنا ما أراد جعل دوننا غيرنا .

وقال طلحة : ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة من أهل الشورى كرهه أحدنا ، و بايعناه وأعطيناه ما فى أيدينا ، ومنعنا ما فى يده ، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا .

و بلغ على قولهما فدعا عبد الله بن عباس فقال له :

— قد بلغك قول هذين الرجلين ؟

قال : نعم بلغنى قولهما .

قال على : فما ترى ؟

قال : أرى أنهما أحبا الولاية ، فول البصرة الزبير ، وول طلحة الكوفة فانهما ليس بأقرب إليك من الوليد ، وابن عامر من عثمان .

فضحك على وقال : ويحك إن العراقين بها الرجال والأموال ؛ ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ؛ ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملا أحداً لضره أونفعه لاستعملت معاوية على الشام ؛ ولولا ما ظهر لى من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى[1] .

ثم أتى طلحة والزبير إلى على فقالا :

— يا أمير المؤمنين أذن لنا فى العمرة ؛ فإن تقم إلى انقضائها رجعنا إليك ، و إن تسر نتبعك .

فنظر إليهما وقال :

---

(١) ينسب ابن أبي الحديد هذا الرأى إلى ابن عباس ، ويقول إن الذى نصح علياً بتوليتهما هو المغيرة . . .

— ما العمرة تريدان . . وإنما تريدان الغدرة ، ونكث البيعة ، امضيا إلى شأنكما . . فمضيا . . .

وفى رواية أنه لما خرج الرجلان من المدينة إلى مكة ، لم يلقيا أحداً ، إلا وقالا له : ليس لعلى فى أعناقنا بيعة وإنما بايعناه مكرهين .

والحقيقة التى لا شك فيها أن طلحة والزبير وان أثارا الناس على عثمان إلا أنهما لم يكونا يطلبان قتله ولا دعيا إلى هذا ، ولا قالا به ، وإنما كانا يريدان اعتزال عثمان الخلافة ، وإبعاد بنى أمية عن وظائف الدولة وعودة الشورى ثانية لعل أحدهما يظفر بالخلافة التى كان يطمع بها ، ولكن عثمان رفض الاعتزال ، وقتل كما قدمنا ، وثار الناس بعد قتله ، وندم القاتلون والثائرون على ما كان ، لأنهم وجدوا أنفسهم فى مأزق لا يدرون كيف تكون النجاة منه ، وأسقط فى الوقت نفسه فى أيدى طلحة والزبير لما شاهدا نقمة الناس فى المدينة عليهما ، وكيف راح الكثيرون يتهمونهما بممالئة الثوار والثورة فراحا عندئذ يحاولان تبرئة نفسيهما مما نسب إليهما فقالا :

— كنا نريد الاصلاح ولم نطلب ما وقع ونحن لا غرض لنا ولا مطمع فى الخلافة . .

وكذلك جرت السفينة على غير مايشتهيان ، واهتم الناس بعد الفاجعة بمبايعة أحد رجال الشورى وكان على أقرب الجميع ، وأنصاره وأعوانه أقوى الأنصار والأعوان ، فبويع ، وبايعه طلحة والزبير على مضض والقول بأنهما بايعا كرها أوقسرا فيها بعض التورية ، لأنه لو كان عندهما من القوة مايمكنهما من الوصول إلى الخلافة أو رفض البيعة ما تأخرا عن رفض البيعة وإعلان الثورة

الصحابة فى الأمصار

أما هذا التأثير الذى كان لبعض الصحابة فى مختلف الأمصار ، والذى كان له شأنه فى الفتنة والثورات الداخلية التى وقعت ، فإن مرده وسببه أن الفاروق عمر بن الخطاب كان قد حجز على أعلام قريش من المهاجرين الانسياح فى البلدان والأمصار التى فتحت حديثا إلا بإذن وأجل، فشكوه و بلغته الشكوى فلم يتكلف تبديل أمره ، وأعلن ذلك للناس وقال : « إنى قائم على حلاقيم من يريدون أن يهووا فى النار» أو شيئا من هذا ، وكانت حجة الفاروق أن للمهاجرين الأولين مزية الدين ومزية الدفاع عن رسول الله ، ومزايا أخرى تتعلق بمثل هذا وتساوقه لم يكن عند المسلمين الجدد مثلها أو شيئا منها ، فإن غادروا المدينة ونزلوا الأمصار الجديدة فلابد أن يتصل بهم المسلمون الجدد ممن لم يكن لهم سابقة ولا صحبة مع الرسول ؛ يعظمون شأنهم و يعززون أمرهم ، و يكونون لهم تبع . . فإذا استقر هؤلاء المهاجرون الأولون وغيرهم من الصحابة بهذا المصر ، وشاهدوا هذه المكانة التى لهم عند الناس، فقد تحدثهم أنفسهم بالاستقلال ، وقد يفكرون بالعودة إلى العصبة الجاهلية القديمة ، من العمل لتزعيم قبيلهم على غيرها ، مما يكون مضراً بالوحدة العربية الإسلامية . . .

فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذى كان يأخذهم به الفاورق فانساحوا فى الأرض فلما رأوها ؛ روا شيئاً جديداً وحياة لا عهد لهم بها فأعجبتهم وفضلوا السكنى فيها ؛ وانقطع إليهم ـ كما قال الفاروق ـ أو شاب الناس ومن لم يكن لهم سابقة ولا مزية فى الاسلام ؛ وصاروا إليهم وقالوا :

— هؤلاء رجال الملك وأرباب الدين ، وقد يملكون غداً ؛ فنكون قد عرفناهم وتقدمنا فى التقارب والانقطاع إليهم .

فكان هذا أول وهن فى الإسلام ، وأول تمزيق لعروة الدولة القائمة ، ولم تمض سنة على إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالا فى الامصار ؛ وانقطع إليهم الناس وبانقطاع الناس إليهم أخذوا فى العودة إلى حديث الجاهلية وتأليف الأحزاب ، والتفاضل بالعصبيات وهو ما قضى عليه الاسلام وحرمه الرسول المعظم . .

والواقع أن قريشاً كانت وفاقا للقاعدة المتبعة فى ذلك العهد كاعضاء الأسرة المالكة ، كبارها مرشحون لأن يلوا الخلافة يوماً ، وغيرهم مرشح لأن يكون أميرا أو حاكماً على مصر من الأمصار ، وليس هناك نظام يعين سابقهم ولاحقهم وهم مع ذلك متباعدو العشائر ، ومحيط المدينة ضيق عن تدبير ما يمكن أن يختلج فى النفوس من الشغب على الخليفة ؛ أما محيط الأمصار فكان واسعاً رحباً ، وكان من السهل إحداث الشغب فيه ، ودفع العامة إلى الثورة ، وانتقاد أعمال الولاة على ملأ منهم ، لأن العربى القريشى المهاجر فى ذلك العهد لم يكن يرى لغيره فضلا عليه ، ولا كان يستكين لأمر سواه ؛ وقد يغرق فيعتقد أن له فى هذا الأمر من الحق مثل ما لأميره ، أو يرى نفسه أولى بالامارة منه . . .

هذه الظاهرة لم يكن بالإمكان أن تظهر عهد الفاروق وفى حياته ، لأن أحدا من قريش وغير قريش لم يكن يجرأ على الفتنة أو يفكر بالثورة ، ولكن عثمان كان غير عمر ، وهو ما حمل الناس على استباحة ضعفه ؛ واستثمار حكمه فكان ما كان من بلاء ونكر .

و بنزول كبار قريش فى الأمصار ؛ أخذ أو شاب الناس ينقطعون إليهم كما

قدمنا ، فراح أهل البصرة يريدون طلحة ، وانضم أهل الكوفة للزبير ، وكان أهل مصر يؤيدون علياً ، والإمام على وإن كان لم ينزل مصر ، إلا أنه جاءها من هو أمس الناس به رحماً ، وهو محمد بن أبى بكر ربيبه وزوج أمه بعد وفاة الصديق ، وكان محمـــد فى حجرها فرباه على ، فكان من أقرب الناس اليه وألصقهم به . .

ومن هذا يظهر لنا جليا واضحاً ، كيف أن هذه الفتن التى حدثت فى الأمصار وثورة العامة فيها على ولاة عثمان ، لم تكن إلا نتيجة طبيعية لما سمح به عثمان لاعلام قريش وأنصارهم وأعوانهم من التبسط فى الأرض ، وانقطاع العامة إليهم أو لمن هو منهم بسبيل ونسب قريب ، ولا يستبعد أبداً أن تكون ثورة الكوفة والبصرة على ولاة عثمان من صنع طلحة والزبير ، وثورة مصر من صنع محمد بن أبى بكر ، ولذلك رأينا أنه لما تم الأمر لعلى وهو مرشح المصريين مثلا ، ثار جماعة طلحة والزبير فى الكوفة والبصرة وتردوا فى البيعة ينتظرون ما يكون موقف كبارهم وزعمائهم من الخليفة الجديد ...

ولكن هذه الجماعات كلها كانت بحاجة إلى شخص يربطها ويوحد صفوفها، ويجمع بين أغراضها المختلفة ونزعاتها المتفرقة ، وكان هذا الشخص أم المؤمنين عائشة ، فكانت زعيمة المعارضة الدامية ، وكانت قائد الجيش المعارض المقبل..

الفصل السابع

الفتنة أسبابها ونتائجها

وتعليقات المستشرقين والمؤرخين

المؤامرة الأموية :

يذهب مولاى محمد على المؤرخ الهندى المعروف إلى أن الشورى مهدت السبيل إلى تمكين الأمويين من الخلافة بعد أن ظلوا على عهد رسول الله وعهد أبى بكر وعمر فى نجوة عن السلطان إلا ما كان من بعض الأمراء والقواد فى الأمصار وعند الغزو والفتوح ...

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن الأمويين قد لعبوا دوراً عظيما فى الأيام الثلاثة التى تلت وفاة عمر بن الخطاب وبيعة عثمان بن عفان ، وأنهم تمكنوا فى هذه الفترة ، ولهم أكثرية فى المدينة ، لمن التأثير فى بعض رجالات الشورى بحيث نجحوا فى انتخاب أموى منهم ، ونسيب لهم ، يجلس على عرش الخلافة .

ولكن المصادر الموثوقة ، وما لدينا من الأخبار والحوادث عن الشورى وما رافق الشورى وتعلق بها ، لا تؤيد شيئاً من هذا ، وقصة الشورى إلى ذلك

تكاد تكون من أوضح القصص فى التاريخ الإسلامى ، فكيف تتسرب الريبة إلى المؤرخ المعاصر ، فى كون الاختيار لم يكن نزيها إلى أقصى حدود النزاهة ، وليس لديه مصدر واحد ثبت موثوق ، يستطيع الاطمئنان له والتأكد منه ، فيعدل عن رأيه هذا ، ويبدل حكماً بحكم ومذهبا بآخر ...

والحق أن الاختيار وقع على عثمان لأنه كان حليما لينا ، وكان المسلمون بعد خلافة الفاروق يريدون أن يتنفسوا الصعداء بعد أن كانوا فى أيام عمر لا يستطيعون العيش على هواهم ؛ فقد ضيق عمر على قريش أنفاسها ، وفرض عليها تقواه ونزاهته وسلطانه ، فكانت قريش والحالة هذه تريد مثلا أن تنساح فى الأرض وتريد أن تقتنى الدور والمزارع ، وأن تستمتع بهذه الثروة التى كانت تدرها الفتوحات عليها .. وكان عثمان مضرب المثل فى حيائه وتقواه ، وهو بعد هذا فى السبعين من العمر ، فلم لا تقبل عليه قريش وتفوض إليه أمرها ، وهى واثقة أنها لن تتبرم بحكمه ، ولن يكون معها إلا كالبحر الجارى سماحة وحلما ..

لا حقد ولا ضغينة

كان الأمويون من أشد المنافسين سياسيا لبنى هاشم ، ولسنا ننكر هذا بل نؤكده أيضا ونعلم عظيم أثره وخطره فى تاريخ الإسلام والعربية ، ولكننا لا نذهب الى أن الأمويين كانوا يحملون فى صدورهم لبنى هاشم — كما يذهب بعض المؤرخين — أشد الأحقاد والضغائن ، وأنهم لم يعتنقوا الإسلام — بعد أن حاربوا رسول الله السنوات العديدة — الا لأسباب شخصية وأغراض تجارية حين رأوا فى انتشار الدين الجديد عاملا مواتيا يرفعهم وينفعهم ولا يضيرهم ،

فان الاختلاف فى نظرنا كان سياسيا بكل ما فى الكلمة من معنى ، ذلك أنه كان للأمويين منزلتهم المرموقة قبل الاسلام فلما جاء رسول الله بدينه انهارت هذه المنزلة وذهبت مع الريح ، وظهر بنو هاشم وكانوا لا ينهضون لأمية قبل الاسلام فى المال والسلطان السياسى ، يحلون محل الأمويين ، ولا أشد على المرء من قيام خصمه السياسى مكانه ، وطبيعة النفوس البشرية لا تقبل هواناً بعد عز ، فلم يكن من المستبعد أن يعمد الأمويون لاعادة أمجادهم السياسية ، وليكتف بنو هاشم بالجاه الدينى مثلا ، وأما أنهم كانوا يكرهون بنى هاشم ويحقدون عليهم ، فقول فيه مبالغة ، والأحداث التى وقعت ، والمعارك التى دارت بين الطرفين كانت فى سبيل الخلافة والملك ، وفى سبيل الملك يقتل الانسان ابنه ونسيبه ، دون أن تكون هناك احقاد سابقة ، وقد عامل العباسيون أبناء عمهم الهاشميين بأشد مما عاملهم به الأمويون ، ولم يكن هناك حقد ولا ضغينة سابقة ، وكانوا قبلا صفاً واحداً ضد الأمويين ...

والواقع أنه فى عهد عثمان الأموى بدأ النزاع الذى استمر طوال العهد الأموى بين الهاشميين والأمويين ، وبدأت أيضا روح التمرد والملل من النظام القائم ، وهى الصفات المتأصلة فى القبائل العربية منذ أجيال عديدة ، والتى لم يتمكن الاسلام من القضاء عليها فى السنوات الأولى القليلة من ظهوره وإنتشاره كما أخذ يظهر ذلك التنافس القبلى القديم من انتساب كل رجل إلى قبيلته والتعصب لها ، والاشارة بأمجادها ومفاخرها ، مع الافضاء عن أمجاد سواها ، أو تجاهلها وانتقادها ، وهو ما ظهر جليا واضحا فى شعر الشعراء ، وخطب الخطباء وفى ساحات الوغى وبين المعارك ..

عثمان فى خلافته :

وكانت السنوات الأولى من خلافة عثمان هادئة ، تمت فيها الفتوح التى بدأها المسلمون عهد الفاروق ، كما أدت غزوات الأتراك فيما وراء النهر إلى استيلاء المسلمين على (بلخ) وفتح (هراة) و (كابول) و (غزنه) وإخضاع كرمان وسجستان فى جنوبى فارس ، وسار عثمان على سياسة الفاروق فى الأعمار فما كان العرب يستولون على مصر أو قطر إلا وتسير فيه أعمال الاصلاح والعمران، من تحسين الحالة المالية والزراعية ، وتخفيف الضرائب عن أهلها وإقامة العدل بين الناس ، وحفر الجداول ، وتعبيد الطرق ، وغرس الأشجار ، وبناء المدن ..

وأدت غارات الجيش البيزنطى فى الشمال إلى توغل جنود العرب فى البلاد المسماة الآن بالأناضول حتى سواحل البحر الأسود ، كذلك فتحوا طرابلس ، وبرقة أفريقيا ، واستولوا على جزيرة قبرص فى الأبيض المتوسط وحطموا أسطول الروم الكبير الذى جاء إلى مياه الاسكندرية لغزو مصر من جديد .

وفيما كان الاسلام ينتشر وتخفق رايته على ربوع تلك الأمصار كان على بن أبى طالب يصرف جهوده فى المدينة لتوجيه نشاط العنصر الناشىء إلى الناحية العلمية ، فشرع مع ابن عمه عبد الله بن العباس فى إلقاء محاضرات أسبوعية فى المسجد الجامع فى الفلسفة والمنطق والحديث والبلاغة والفقه ؛ بينما تفرغ غيرهما إلى إلقاء محاضرات فى شؤون أخرى. وهكذا تألفت نواة الحركة العلمية التى ترعرعت وزهت بعد حين فى « بغداد » عاصمة العباسيين ، وفى تلك الأثناء طفق الناس يتذمرون من تصرف الخليفة ومن المقربين إليه ، وارتفعت الشكوى من استبداد الحكام واغتصابهم الأموال وقد تكلم « على » عدة مرات مع الخليفة

فى هذا الشأن، ولـكن « عثمان » بتحريض مروان أبى الاسـتماع إلى نصائحه وأخيراً جاءت الوفود إلى المدينة تطلب إقامة العدل والإنصاف ، فأعادهم الخليفة إلى أمصارهم بعد أن وعدهم خيراً . ولـكنهم ما كادوا يغادرون المدينة حتى عثروا على كتاب بخط « مروان » ، وقد قيل انه بختم الخليفة يطلب فيه قتلهم جميعاً فاستشاطوا غضباً وقفلوا راجعين للمطالبة بقتله . ويجب أن نذكر هنا أن بعض أفراد الأسرة كانوا قد ضموا أصواتهم إلى المتمردين ، غير أن الخليفة الثالث أبى الاسـتماع إليهـم فظنوا أن له ضلعاً فى المـكيدة ، وحاصروه فى بيتـه ، ويقال إن أقارب تخـلوا عنه وقت الشدة وهربوا إلى الشام ، ولـكن علياً وأولاده ومواليه دافعوا عنه دفاعاً مشهوداً بحيث لم يستطع المتآمرون أن ينقلبوا عليهم إلا بعد جهد عظيم . وتقول لنا الرواية العربية إن اثنين منهم تسلقا ، جدار بيته وقتلاه وهو ابن ٨٢ سنة وقيل ٨٦ سنة . وكان ملتحياً ، متوسط الطول ، بارز عضلات الوجه ، وقد كانت تعوزه قوة العزيمة وصلابة الرأى ،غير أنه امتاز بالجود والـكرم ، ويعرف عنه أنه أهدى كاتبه مروان بن الحـكم فى عدة فرص أموالا من المال الأمر الذى جلب عليه سخط المسلمين .

خلافة على

ولما قتل «عثمان» بويع « على » بالإجماع . وقد كان فى خلال عهد الخلفاء الثلاثة أحد أركان هيئة الشورى فلم يأل جهداً فى مساعدتهم وتزويدهم بالإرشادات القيمة . كذلك ينسب كثير من الأعمـال الإدارية العظيمة التى تمت فى عهد « عمر » إلى إرشاده ، إذا كان فى الواقع يعتمد عليه ويركن إلى نصحـه فأنابه عنه مدة سفره إلى الشام . ولـكن « علياً » كان دائما فى جميع أطوار حيـاته

مستقل الرأى . لا يداهن ولا يرائى ، متفرغا الى العلم و إلى تهذيب أولاده .

و يقال إنه حين أفضت إليه الخلافة توجه إلى الجامع ببساطته المعهودة ، وأخذ يتقبل البيعة من الناس (وهو متكىء على قوسه الطويل) وكان فيما قال انه : مستعد إلى التنازل عن الخلافة لمن هو أحق بها منه . ويقول مؤرخ فرنسى مشهور (سيديلو) :

« يخيل للمرء حينما بويع على بن أبى طالب أن الكل سيطأطىء هامته أمام هذه العظمة المتلألئة النقية غير أنه قدر غير ذلك » فلقد أحاط به فى بادىء الأمر عداء بنى أمية ؛ ولكنه لم يحتط للدسائس ، وأبى أن يقر عمال « عثمان » مدفوعا بشرف الغاية التى كانت من أبرز ميزاته . وبرغم النصائح التى أسديت إليه لمسايرة الظروف فقد انتزع الأملاك التى أقطعها « عثمان » لأتباعه من بيت المال ، وقسم الخراج طبقا للقواعد التى سنها « عمر » فجلبت عليه هذه الاجراءات الحازمة سخط الذين أثروا فى العهد السابق . وقد تنازل بعض العمال عن مناصبهم دون مقاومة بينما رفض البعض الآخر النزول على أمر الخليفة الجديد ومن بينهم معاوية بن أبى سفيان عامل الشام الذى كان قد جمع ثروة طائلة ، وأعد تحت إمرته جيشا لجبا يدين له بالولاء ، وهكذا أعلن معاوية العصيان بعد ان احتاط للأمر واستعد للمقاومة . »

رأى معتدلى الشيعة

و يذهب ابن أبى الحديد إلى أن قريشا كانت تقف من على بن أبى طالب موقفا عجبا ، كانت تكره ولايته ، ولا ترغب فى خلافته ، و يقول البعض أن الفاروق كان يعلم هذه العاطفة فى قريش ، وأن هذا هو السبب الذى دعاه

لاختيار الشورى ، ولولا ذلك ، ولولا هذا الاعتبار لما عدل الفاروق بالخلافة عن على ، ولقدمه على غيره واختاره دون سواه ...

ويشرح بن أبى الحديد رأيه فيقول :

« اعلم أن حال على عليه السلام فى هذا المعنى أشهر من أن يحتاج فى الدلالة عليها إلى الاسهاب والاطناب ، فقد رأيت انتقاض العرب عليه من أقطارها حين بويع بالخلافة بعد وفاة رسول الله عليه السلام بخمس وعشرين سنة ، وفى دون هذه المدة تنسى الاحقاد وتموت الثارات ، وتبرد الأكباد الحامية ، وتسلو القلوب الواجدة ، ويعدم قرن من الناس ويوجد قرن ، ولا يبقى من أرباب تلك الشحناء إلا الأقل فكانت حاله بعد تلك المدة الطويلة مع قريش كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة رسول الله من إظهار ما فى النفوس ، وهيجان ما فى القلوب ، حتى الاخلاف من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته فى أسلافهم وآبائهم فعلوا به ما لو كانت الأسلاف احياء لقصرت عن فعله ، فكيف كانت تكون حاله لو جلس على منبر الخلافة وسيفه يقطر دما من مهج العرب سيما قريش الذين بهم كان ينبغى لو دهمه خطب أن يعتمد ؟ ؟ .

إذن كانت تدرس أعلام الأمة ، وتنتفى رسوم الشريعة ، وتعود الجاهلية الجهلاء على حالها ، ويفسد ماصلحه رسول الله فى ثلاث وعشرون سنة فى شهر واحد فكان من عناية الله بهذا الدين أن ألهم الصحابة ما فعلوه . . . »

سياسة على

ومن المؤكد أن عليا أحس باضطراب الأموال من حوله ، فحاول تهدئة الناس أول الأمر فى المدينة ، وخطب الناس بهذا المعنى وطلب من كل فرد من

أفراد الرعيـة أن ينصرف لشأنه ويكف عن الخوض فى الفتنة ومقتـل الخليفة السابق ، وما يتبع هـذا الشأن و يتصل به من اختلاف وتمزق و بلاء ، ودعا الناس فوق هذا إلى أن يتقبلوا نوعا جديدا من الحياة . . . كله اقبال على الآخرة وزهد فى الدنيا ، وقيام بحـدود الله وطاعته فيما أمر به ، والانتهاء عما نهى ...

ولـكن أمير المؤمنين كان يسأل الناس مستحيلا ، و يطلب منهم ما لا طاقة لهم به ، فقد رأى المسلمون الدنيا . واستساغوا ما فيها فى نعيم وخيرات ؛ وهم إلى هذا يريدون أن يجمعوا بين جمال الدنيا وروعة الآخرة ، فهم والحالة هذه ليسوا بتاركيها (الدنيـا) حتى تتركهم ، وهى ليست فاعلة حتى يتركوها ، وهم ليسوا بممتنعين عن الخوض فى السياسة والأحزاب حتى يشاء الله ، خصوصاً بعـد أن عادت العصبية القبلية الجاهلية إلى الظهور ، وأخذت القبائل تعود سيرتها الأولى من المفـاخرة بالأحساب والانساب ، كما ظهر الخلاف واضحا جلياً بين هاشم وأميـة . . .

وكان مقتل عثمان ذريعة اتخذها الأمويون لتحطيم نفوذ على و بنى هاشم ، فادعوا أنه قتل مظلوما ، وأن علياً مسؤول عن قتله ، لأنه خذله ولم يأخذ بناصره ، و يدللون على ذلك بأن بعض قتلة عثمان ، أو بعض المحرضين على قتـل عثمان كالأشتر مثلا موجود فى جند على ، وأن علياً لا يعمل على إقامة الحد عليـه ، مما يدل على أنه يناصره و يؤيده .

من القاتل ؟

وكان على فى موقف أقل ما يقال فيه أنه من أحرج المواقف وأشدها دقة وخطورة ، ذلك أن قتلة عثمان كانوا أكثر من واحد ، وهؤلاء هربوا ، ولم يبق فى المدينة إلا من كان ينفخ فى بوق الثورة أو يدعو لها ، وهؤلاء لم يكونوا بالقتلة ولا بالمجرمين . .

وقد اختلف المؤرخون إلى هـذا فى أسماء القتلة ، ولا يبعد أنهم أنكروا ما فعلوا ذلك العهد ، وما داموا ينتمون إلى بطون وقبائل فلا شك أن هـذه كانت تؤيدهم وتناصرهم وتدافع عنهم ، فلو عرف على القتلة ، وتمكن منهم وأراد إقامة الحد عليهم ، لاقتضى ذلك إثارة خلاف داخلى جديد ، يذهب فيـه مئات من المسلمين ...

ولذلك رأينا عليا يطلب من الصحابة الذين جاءوا بعد البيعة يطلبون منه إقامة الحدود أن يتريثوا فى الأمر ، ريثما تستقر الأحوال وتهدأ الأمور ...

هذا ما كان عليه الموقف السياسى فى المدينة... جاءها جماعة من الكوفة والبصرة ومصر ، فحاصروا خليفة المسلمين القائم فى عاصمته وقتلوه ، ووقف منهم أثناء الحصار أهل المدينـة موقف المؤيد المعوان والمتفرج الذى لا يبالى ، والخانع الذى لا يهمه من الأمر شىء . ! فلما وفق أهل الأمصار إلى غرضهم ، وتمكنوا من المدينة ومن عاصمة الخلافة ، بحيث أصبحوا أصحاب القول الفصل فيها ، بايعوا بالاتفاق مع الأكثرية من سكان المدينة و بعض الصحابة على بن أبى طالب بالخلافة ، فلما أصبح هذا الأمر مقضيا جاء بعض الصحابة وعلى رأسهم

طلحة والزبير ، وقد ثبت أنهم كانوا من المحرضين والمؤلبين على عثمان أثناء خلافته ، ولا نقول إنهما دعوا إلى قتله ، ولكنهما مافى ذلك شك ، انتقدا سياسته وإدارته على ملأ من المسلمين ورجال الأمصار انتقاد مراً ولما كانا من الشورى ، وكان لهما كلمتهما المرموقة ، وكان لكل واحد منهما أعوان وأنصار فى البصرة والكوفة ، فان انتقادهما كان له شأنه وخطره ووزنه ولو أراد المسلمون فى ذلك الوقت تأليف محكمة لتعيين المسئولين ، لما خرج طلحة والزبير بالبراءة التامة المطلقة ...

جاء هؤلاء إلى أمير المؤمنين يطلبون منه إقامة الحدود على القتلة ، كأن الأمر بيده ، وكأن له السلطان الذى لا يدفع ، على الثوار وزعماء الأمصار ، والواقع غير ذلك فعلى فى هذه الفترة الجاهمة كان خليفة لا يستطيع أن يفعل ما يشاء ولا ما يريد . . وكان سلطانه على جماعته فاتراً هيناً ، ولو أراد العمل بنصيحة طلاب الحدود لكانت ثورة جديدة فى المدينة لا يكون مقتل عثمان أمامها إلا يسيراً هيناً ...

وكان أول هم أمير المؤمنين بعد البيعة جمع الأمصار البعيدة على بيعته ، ولا يقوم بهذا العمل إلا عمال يختارهم ويثق بهم ، إذ كان لا يثق بعمال عثمان ، خصوصاً وزعماء الأمصار إنما جاءوا المدينة وثاروا ثورتهم المعروفة لاختلافهم مع عمالهم ، وعدم ثقتهم بهم ...

ولذلك قرر برغم نصيحة أصحابه اقالتهم وإرسال عمال يؤمن بإخلاصهم مكانهم ، وأرسل عماله كما قدمنا ، فأطاعته الكوفة بعض الطاعة ، وكان هذا

شأن مصر ، وأما البصرة فكانت لا تزال مضطربة الرأى ، أيّد بعضها عليا ، وأنكره البعض الآخر ، وتربص القسم الثالث ، وأما الشام فقد أبت ولايته ، وكان معاوية مستقلا بها و بيده المال والجند، وأما اليمن فدخلت فى بيعته وقبلت رسوله ، وعندئذ أخذ أمير المؤمنين يستعد لقتال معاوية فى دمشق ، وهو الخصم الأكبر فان قضى عليه دانت له البلاد من أدناها إلى أقصاها . . .

الفصل الثامن

التأهب إلى البصرة

وصف الموقف فى البصرة بعد دخول عائشة وأنصارها

موقف أهل المدينة :

وقف أهل المدينة فى هذه الفترة الدقيقة من خلافة على بن أبى طالب موقفا قلقا مضطربا ، كثرت فيه الأقاويل وغمرت البلد الإشاعات والاخبار ، وكانوا يرغبون فى معرفة رأى معاوية بعد ما صارحه هذا بالعداوة ، ورفض البيعة ، ليعلموا أيقاتله وأنصاره وهم أهل قبلة ، أم يتركهم وشأنهم خصوصا بعد ما بلغهم أن ابنه الحسن وغيره قد نصحوه بأن يترك الناس وشأنهم ويجلس فى بيته فان العرب تدور ثم تدور فلا تجد غيره . . فدسوا إليه زياد ابن حنظلة ، وكان منقطعا إليه فدخل عليه فكلمه فقال له على :

متى تجمع القلب الذكى وصارماً وأنفاً حميا تجتنبك المظالم

فخرج إلى القوم وقال : ياقوم الحرب . . .

وأخذ أمير المؤمنين يرتب شؤونه ، وينظم جنوده ، ويشحذ سلاحه ، وكتب إلى أنصاره فى الأمصار ليمدوه بالرجال والسلاح ، وبينما هو وجماعته على

التجهز لأهل الشام ، أتاهم الخبر عن طلحة والزبير وعائشة وأهل مكة بأنهم على الخلاف ، فأعلم الناس ذلك ، وأن القوم سخطوا إمارته وفارقوا بيعته ، وقال لهم :

ـ سأصبر مالم أخف على جماعتكم ، وأكف ان كفوا واقتصر على ما بلغنى ...

و بعد أيام بلغه أنهم يريدون البصرة ، فقرر أن يخرج خلفهم وهو يقول :

ـ ان فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين ، وما كان عليهم فى المقام فينا مؤونة ولا إكراه . . .

ومعنى هذا أن أمير المؤمنين لم يكن يعارضهم أو يقاتلهم لو ظلوا فى مكة مخالفين له ، ولكنهم لما خرجوا إلى الأمصار يدعون أهلها إلى الخلافة فقد أصبحوا أداة للتدمير والثورة وهو ما لم يكن يستطاع السكوت عنه والصبر عليه . . . واشتد الأمر على أهل المدينة لما بلغهم ما وقع فى مكة ، فأخذ الكثيرون منهم يتثاقلون عن النهوض مع على وهم يقولون :

— لا والله لا ندرى كيف نصنع ، فان الأمر قد اشتبه علينا ، ونحن مقيمون حتى يضىء لنا و يسفر . .

ولم يوفق أمير المؤمنين إلى إنهاض عدد يذكر من أهل المدينة ، ولم ينهض معه من أهل بدر غير ستة نفر ، وكان عبد الله بن عمر بن الخطاب من جملة المتثاقلين فلما دعوه للخروج قال :

— إنما أنا من أهل المدينة ، وقد دخلوا فى هذا الأمر فدخلت معهم ؛ فان يخرجوا أخرج معهم ، وان يقعدوا أقعد . .

الحالة فى مكة

وكانت عائشة قد خرجت من المدينة إلى مكة وعثمان محصور ثم خرجت من مكة تريد المدينة ، فلما علمت بمقتله و بيعة على اشتد عليها الأمر ، فارتدت الى مكة وهى تقول :

ـ قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه . .

فلما ذكروا لها ما كانت تقول فيه وفى سياسته . . قالت :

ـ انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الأول . . ولما عادت الى مكة اجتمع إليها الناس على باب المسجد فقالت :

ـ أيها الناس ان الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس ، ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه ، وقد استعمل أمثالهم قبله ، ومواضع من الحمى حماها لهم ، فتابعهم ونزع لهم منها فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادروا بالعدوان ، فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام ؛ والشهر الحرام ، والله لاصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ، ووالله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه . . »

فلما سمع الناس قولها ، وما أظهرته من المطالبة بدم عثمان قال عبدالله بن عامر الحضرمى ، وكان عامل عثمان على مكة :

ـ ها أنا ذا لها أول طالب . . .

وكانت اجابة هذا الرجل لها ، وتأييده لدعوتها دافعاً لبنى أمية على رفع

رءوسهم وتأييد عائشة ، وكانوا هربوا من المدينة بعد قتل عثمان إلى مكة ، وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير . وجاءهم يعلى بن أمية عامل عثمان على اليمن بعد أن عزله على بما كان فى بيت ما لها من الأموال وقد قدرها ابن الأثير بستمائة بعير وستمائة ألف درهم ، وقدم طلحة والزبير من مكة وكان الاجتماع السياسى الأول فيما بينهم، ولا ندرى من حضره على وجه التحقيق من غير هؤلاء أى عائشة وطلحة والزبير وعامل مكة و بعض بنى أمية وفيه تقرر السفر إلى البصرة وقالت عائشة تحرضهم :

« أيها الناس ان هذا حدث عظيم وأمر منكر ، فانهضوا فيه إلى اخوانكم لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم » . .

وكان غرض عائشة أن تنهض للمدينة أولا ، وأن تحارب علياً وأنصاره بمن يجتمع معها من الأنصار والأعوان . . ولذلك قالت فى الاجتماع المذكور « انهضوا الى هذه الغوغاء » وكان كلامها هذا جواباً على ما قاله طلحة والزبير « اننا هربنا من المدينة خوفا من الغوغاء والأعراب ، واننافارقنا قوما حيارى لا يعرفون حقا ولا ينكرون باطلا ولا يمنعون أنفسهم . . . »

فظنت عائشة ان الأمر فى المدينة هين فقالت : انهضوا إليهم . .

فقال لها أصحابها : يا أم المؤمنين ، دعى المدينة ، فإن من معنا لا يطيقون الوقوف أمام هذه الغوغاء التى بها ، واشخصى معنا إلى البصرة فانا نأتى بلداً مضيفا وسيحتجون علينا فى بيعة على بن أبى طالب ، فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكة ، ثم تقعدين فان صلح هذا الأمر كان الذى تريدين ، و إلا احتسبنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضى الله ما أراد » ...

ومن حديث هذه الجماعة ، وهو حديث طلحة والزبير كما هو ظاهر ، يدرك

القارىء مكانة عائشة فى نفوس الناس ، وتأثيرها فى دعوتهم ، وكيف أنها هى التى أنهضت أهل مكة ، وكيف أن جماعتها كانوا يعتمدون عليها فى انهاض أهل البصرة ، والدفاع عنهم لما سبق من بيعتهم لعلى بن أبى طالب . .

ورغبت عائشة إلى زوجات رسول الله بالخروج معها ، وكانت أم سلمة وحفصة فى مكة ، فرفضت أم سلمة وكان هواها مع على ، ويقال إن حفصة قبلت أولا ثم رفضت لما كتب لها شقيقها عبد الله بن عمر بن الخطاب ينصحها بألا تفعل . .

ولا يستبعد تفكير حفصة فى الخروج مع عائشة أم المؤمنين فقد كانت أبداً تؤيدها فى سياستها ، وكانت من أعضاء حزبها فى عهد رسول الله ، وكانت مقربة محببة إليها . . .

وكذلك استقر الرأى على الخروج إلى البصرة وأخذ الناس بالتجهز والاستعداد . .

وقدم ابن عامر ما عنده من المال والسلاح ، وتقدم يعلى بن أمية يجهز الناس بما جلبه من أموال المسلمين فى اليمن ، ونادى المنادى فى مكة : « إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة ، فمن كان يريد اعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان ، وليس عنده ركب ولا جهاز ، فليأتنا نجهزه ونعطه مركوباً » فسار معهم بين التسعمائة والألف من أهل المدينة ومكة ، وانضم إليهم فى طريقهم بعض الأعراب فلما أشرفوا على البصرة كانوا فى ثلاثة آلاف . .

وقد أكدت المصادر التى بين أيدينا أن أم سلمة نصحت عائشة بعدم الذهاب

إلى البصرة ، وجاء فى مصدر آخر(١) أن أم سلمة كتبت إلى على من مكة :

« أما بعد فان طلحة والزبير وأشياعهما يريدون أن يخرجوا بعائشة إلى البصرة ومعهم عبد الله بن عامر ، ويذكرون أن عثمان قتل مظلوماً ، وأنهم يطلبون بدمه ، والله كافيهم بحوله وقوته ، ولولا ما نهانا الله عنه من الخروج ، وأمرنا به من لزوم البيوت ، لم أدع الخروج إليك والنصرة لك ، ولكنى باعثة نحوك ابنى عمر فاستوص به يا أمير المؤمنين خيراً » .

الجمل عسكر

ولما عزمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بعيراً قوياً يحمل هودجها ، فجاءهم يعلى بن أمية ببعيره المسمى عسكراً ، وكان عظيم الخلق شديداً . فلما رأته أعجبها ورضيت به هودجا ومركبا . .

عائشة والأشتر

وكتب الأشتر وهو من أعظم أنصار على إلى عائشة وهى بمكة :

« أما بعد فانك ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أمرك أن تقرى فى بيتك ، فان فعلت فهو خير لك ، وإن أبيت الا أن تلقى جلبابك وتبدى للناس شعيراتك ، قاتلتك حتى أردك إلى بيتك والموضع الذى يرضاه لك ربك » فكتبت إليه تقول : أما بعد فانك أول من أثار الفتنة ، ودعا إلى الفرقة ،

---

(١) هشام بن محمد الكلبى فى كتاب (الجمل) .

وخالف الجماعة ، وسعى فى قتل الخليفة ، وقد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم ، وقد جاءنى كتابك وفهمت ما فيه ، وسيكفينيك الله وكل من أصبح مماثلا لك فى ضلالك وغيك ان شاء الله » ..

من الأمير ؟

ويقول ابن الأثير « انه لما خرجت عائشة وجماعتها من مكة جاء مروان بن الحكم حتى وقف على طلحة والزبير فقال :

— على أيكما أسلم بالامرة وأوذن بالصلاة . . ؟

فقال عبد الله بن الزبير : على أبى . . (يعنى الزبير بن العوام) .

وقال محمد بن طلحة : على أبى . . (يعنى طلحة) .

فأرسلت عائشة إلى مروان وقالت له :

— أتريد أن تفرق أمرنا ، ليصل بالناس ابن أختى عبد الله بالزبير ، وقيل بل صلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد . .

فكان معاذ بن عبيد يقول :

— والله لو ظفرنا على على لاقتتلنا ، ما كان الزبير يترك طلحة والأمر ، ولا كان طلحة يترك الزبير والأمر ...

ويقول ابن الأثير : إن أمهات المؤمنين ممن كن بمكة تبعن جيش عائشة إلى خارج مكة فبكوا على الإسلام . . فلم ير يوم كان أكثر باكياً وباكية من ذلك اليوم . . وكان يسمى يوم النحيب ...

خلاف داخلي

ولما بلغ القوم (ذات عرق) لقي سعيد بن العاص مروان بن الحكم وأصحابه فقال لهم :

ـ أين تذهبون وتتركون ثأركم على أعجاز الإبل وراءكم ـ يعني عائشة وطلحة والزبير ـ اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم . .

فقالوا : نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعا ...

فخلا سعيد بطلحة والزبير فقال : إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر . . أصدقاني؟

قالا : نجعله لأحدنا . . أينا اختاره الناس ...

قال : بل تجعلونه لولد عثمان . . فانكم خرجتم تطلبون بدمه . .

فقالا : ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأيتام . .

قال : فلا أراني أسعى إلا لإخراجها من بني عبد مناف . .

فرجع ورجع معه عبد الله بن خالد بن أسيد وغيره ...

وقال المغيرة بن شعبة : الرأي ما قال سعيد . . من كان ههنا من ثقيف فليرجع . .

فرجعوا . . .

الاتصال برجال البصرة

ولما اقتربت عائشة من البصرة أرسلت رجلا من أنصارها ليدرس لها أحوال القوم ، وكتبت إلى رجال منهم الأحنف بن قيس ، وكان طلحة والزبير قد فعلا

مثل ذلك فكتبا إلى أناس من أهل البصرة يدعونهم الى الدخول معهم ، فكتب إليهما كعب بن سور ، وكان قاضى عمر بن الخطاب وشيخ أهل البصرة يقول : « أما بعد فانا غضبنا لعثمان من الأذى باللسان ، فجاء أمر الغير فيه بالسيف ، فان يك عثمان قتل ظالما فما لكما وله ، و إن قتل مظلوما فغيركما أولى به ، وان كان أمره أشكل على من شهده ، فهو على من غاب عنه أشكل . . » وكتب إليهما الأحنف بن قيس وغيره بمثل ذلك ...

وفد العامل إلى جماعة عائشة

ولما نزلت عائشة خارج البصرة دعا عثمان بن حنيف عاملها عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلى وقال لهما :

ـ انطلقا إلى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها ...

فخرجا فانتهيا اليها بالحفير فأذنت لهما فدخلا وسلما وقالا :

ـ ان أميرنا بعثنا اليك لنسألك عن مسيرك ، فهل أنت مخبرتنا ؟

فقالت : والله ما مثلى يغطى لبنيه الخبر ، ان الغوغاء ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدثوا فيه ، وآوا المحدثين ، فاستوجبوا لعنة الله ولعنة رسول الله ، مع ما نالوا من قتل امام المسلمين بلا ترة ولا غدر ، فاستحلوا الدم الحرام وسفكوه ، وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء ، وما الناس فيه وراءنا ، وما ينبغى لهم من إصلاح هذه القصة ، فهذا شأننا الى معروف نأمركم به ، ومنكر ننهاكم عنه ...

فخرجا من عندها فأتيا طلحة وقالا :

ـ ما أقدمك ؟

فقال : الطلب بدم عثمان . .

فقال : ألم تبايع عليا ؟

قال : بلى والسيف على عنقى . .

ثم أتيا الزبير فقال لهما مثل قول طلحة ، فرجعا إلى عثمان بن حنيف فنصحه أبو الأسود برد القوم عن البلد ومحاربتهم . .

ويقول ابن أبى الحديد ان عامل البصرة أرسل أبا الأسود الدؤلى ليعلم له علم القوم فذهب الى عائشة فلما مثل بين يديها سألها عن مسيرها فقالت :

ـ أطالب بدم عثمان . .

فقال : انه ليس بالبصرة من قتلة عثمان أحد . .

قالت : صدقت . . ولكنهم مع على بن أبى طالب بالمدينة وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله . . . أنغضب لكم من سوط عثمان . . ولا نغضب لعثمان من سيوفكم .

فقال لها : ما أنت من السوط والسيف . . انما أنت زوج رسول الله أمرك أن تقرى فى بيتك ، وتتلى كتاب ربك ، وليس على النساء قتال . ولا لهن الطلب بالدماء ، وان عليا لأولى بعثمان منك وامس رحما . . فانهما أبناء عبد مناف ...

فقالت : لست بمنصرفة حتى أمضى لما قدمت اليه . . أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالى ؟

قال : أما والله لنقاتلن قتالا أهون به الشديد ...

ثم قام أبو الأسود فأتى الزبير فقال له :

ـ يا أبا عبد الله لقد كنت تأخذ بقائم سيفك يوم بويع أبو بكر وتقول « لا أحد أولى بهذا الأمر من ابن أبي طالب ، وأين هذا المقام من ذاك ؟ » .

فذكر له دم عثمان فقال له أبو الأسود :

ـ أنت وصاحبك ـ يعني طلحة ـ وليتماه فيما بلغنا . .

قال الزبير : فانطلق الى طلحة فاسمع ما يقول . .

فذهب الى طلحة فوجده سادراً مصراً على الحرب ...

فرجع الى عثمان بن حنيف فقال له : انها الحرب فتأهب لها ...

استعراد عامل البصرة

أخذ عثمان بن حنيف عامل على على البصرة يدرس الأمر من وجوهه المختلفة فأشار عليه بعضهم بالكف عن القوم ، ونصحه آخرون باعتزال الفتنة . .

فأبى وقال :

ـ بل أمنعهم من دخول البصرة حتى يأتي أمير المؤمنين ...

وخطب الناس في المسجد فقال :

« أيها الناس إنما بايعتم الله . يد الله فوق أيديكم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه . ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما . والله لو علم على أن أحداً أحق بهذا الأمر منه ما قبله ، ولو بايع الناس غيره ، لبايع من بايعوا وأطاع من ولوا ، وما به إلى أحد من أصحاب رسول الله حاجة ، وما بأحد عنه غنى

ولقد شاركهم فى محاسنهم ، وما شاركوه فى محاسنه ، ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريدان الله ، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع والرضاع قبل الولادة ، والولادة قبل الحمل ، وطلبا ثواب الله من العباد ، وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين ، فإن كانا استكرها قبل بيعتهما ، وكانا رجلين من عرض قريش لهما أن يقولا « الا وان الهدى ما كانت عليه العامة ، والعامة على بيعة على فما ترون ؟ »

فقال حكيم بن جبلة العبدى ! نرى أن دخلا علينا قاتلناهما وان وقفا تلقيناهما ، والله ما أبالى أن أقاتلهما وحدى ، وإن كنت أحب الحياة ، وما أخشى فى طريق الحق وحشة ولا غيرة ولا غشاً ولا سوء منقلب إلى بعث ، وانها لدعوة قتيلها شهيد ، وحيها فائز والتعجيل إلى الله قبل الأجر خير من التأخير فى الدنيا ، وهذه ربيعة معك .

ولكن أهل البصرة لم يكونوا جميعاً من رأى عثمان بن حنيف ، فكان بينهم من يرى رأى أم المؤمنين وأصحابها ، ومنهم من يريد الاعتصام ببيعة على ، وظهر الاختلاف فى رأيهم ، فذهب قوم منهم إلى معسكر أم المؤمنين يسألونها الدخول إلى البصرة ، ووقفت جماعة مع عامل أمير المؤمنين تحاول ردها وجماعتها عن دخول البلد ، ولو كان فى ذلك السيف والحرب .

واجتمع القوم بالمربد ، فقام طلحة فى ميمنته ومعه الزبير ، ووقف عثمان فى الميسرة ، فخطب طلحة الناس ، فحمد الله واثنى عليه وذكر عثمان رضى الله عنه وفضله ، وما استحل منه ، ودعا إلى الطلب بدمه وحثهم عليه ، وتكلم الزبير بمثل ذلك ، فقال من بالميمنة : صدقا و برا ، وقال من بالميسرة : فجراً وغدراً ، وقالا الباطل وأمرا به ، قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان

وتحاصب الناس وتحاثوا بالتراث ، واختلف أمرهم ، فتكلمت عندئذ أم المؤمنين وكانت جهورية الصوت ، قوية العارضة فأنصت لها الناس فقالت :

خطاب عائشة

« كان الناس يتجنون على عثمان رضى الله عنه ، ويزرون على عمـــاله ، ويأتوننا بالمـدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم فننظر فى ذلك، فنجده بريئاً نقياً وفياً ، ونجدهم فجرة غدرة كذبة ، وهم يحاولون غـير ما يظهرون فلمـا قووا كاثروه واقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام بلا ترة ولا عذر ، ألا ان مما ينبغى ولا ينبغى لـكم غيره أخذ قتلة عثمان رضى الله عنه ، واقامة كتاب الله ليحكم فيهم » .

فلما سمع الناس كلامها، اختلف أصحاب عثمان بن حنيف فيما بينهم فرقتين فرقة قالت : صدقت و برت وجاءت والله بالمعروف ، وقال الآخرون : كـذبتم والله ما نعرف ماتقولون ، فتحاجوا وتحاثوا بالتراب ثانية ، فلما رأت عائشة ذلك انحدرت ومن معها من أهل الميمنة إلى موضع المربد ، وبقى أصحاب عثمان على اختلافهم وتحاجزهم وانضم فريق منهم الى أم المؤمنين ورجالها .

وأقبل جارية بن قدامة العبدى فقال :

— ياأم المؤمنين ، والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون، أنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وابحت حرمتك، إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك ، ان كنت خرجت طائعة فارجعى إلى منزلك وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعينى بالناس .

وخرج شاب من بنى سعد إلى طلحة والزبير فقال :

— أما أنت يازبير فحوارى رسول الله ، وأما أنت ياطلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى أم المؤمنين معكما فهل جئتما بنسائـكما ؟

فقالا : لا .

قال : فما أنا منكما فى شىء .

وأقبل غلام من جهينة على محمد بن طلحة ـ وكان محمد رجلا عابدا ورعا ـ فقال له :

ـ أخبرنى عن قتلة عثمان ؟

فقال : نعم ، دم عثمان على ثلاث ، ثلث على صاحبة الهودج ـ يعنى عائشة ـ وثلث على صاحب الجمل الأحمر ـ يعنى أباه طلحة ـ وثلث على علىّ بن أبى طالب

فقال الغلام : لا أرنى على ضلال ، ولحق بعلى .

فى سبيل عثمان

كان من المنتظر بعد أن اشتدت الخصومة على هذا النحو، وتأصلت العداوة والبغضاء فى القلوب المتنافرة ، وثار كل فريق إلى جانب من يؤيده وينصره ان يغتنم بعضهم هذه الفرصة فيستفز العامة ، ويثير الحرب ، ويحمل السيف ، وكان البادىء بالقتال أصحاب عثمان بن حنيف عامل علىّ على البصرة ، فاقبل منهم حكيم بن جبلة وهو على الخيل ، فأنشب القتال ؛ واشرع أصحاب عائشة رماحهم ، فقاتلهم حكيم وجماعته معه ، وأمسك أصحاب عائشة عنهم ، يدافعون عن أنفسهم حتى انتهى النهار ، وأخذ الفريقان يستعدان للقتال فى اليوم التالى ، فلما كان الغد أصبح عثمان ومعه حكيم وجماعته يستعدون للحرب ، وحكيم يسب عائشة ؛ فلامه رجل وامرأة فقتلهما ؛ والتقى الفريقان، وقتل من أصحاب عثمان خلق كثير ، وفشت الجراحات فى الفريقين ومنادى عائشة ينشدهم ويدعوهم إلى الكف فيأبون إلى أن زالت الشمس وعضتهم الحرب ، ومسهم الشر ، فنادوا أصحاب عائشة إل الصلح . فأجابوهم وتواعدوا وكتبوا بينهم

كتابا على أن يبعثوا رسولا الى المدينة يستخبر أهلها ، فان كان طلحة والزبير أكرها على بيعة على . خرج عثمان عنهما ، وأخلى لهما البصرة، وان لم يكونا خرج طلحة والزبير عنهم . فخرج كعب بن رسول حتى قدم المدينة يوم جمعة واجتمع الناس لقدومه فقال :

ـ ياأهل المدينة انى رسول أهل البصرة إليكم أأكره هذان الرجلان على بيعة على أم أتياها طائعين ؟

فلم يجبه أحد من القوم إلا ما كان من أسامة بن زيد فإنه قال :

ـ اللهم انهما لم يبايعا إلا وهما كارهان .

فوثبه سهل بن حنيف والناس ، حتى خشى عليه أصحاب رسول الله من القتل ، فقاموا ليمنعوه وفيهم صهيب بن سنان وأبو أيوب بن زيد ، ومحمد بن مسلمة وصدقوا قوله ومنعوه ، ورجع رسول أهل البصرة بما وقف عليه بالمدينة

ومن غريب الأمر فى هذه الفترة المضطربة أن يمشى وافد أهل البصرة الى المدينة مقر الإمام وشيعته ؛ فلا يعرف بقدومه أحد منهم ، ولا يعرض له احدهم ، ولا يسأله الإمام أن يأتيه ، ولا يفكر عثمان بن حنيف عامل الإمام على البصرة أن يبعث لإمامه وخليفة المسلمين بتفصيل ما حدث فى مصره ووقع بينه و بين القوم ، كما كان من الخرق منه أن يسمح لحكيم بن جبلة فى مقاتلة القوم ومحاربتهم ، وكان فى وسعه أن يلزم القوم التربص حتى يأتيه أمر الخليفة وهو ما اغضب الإمام عليه ؛ فأرسل له كتابا يعجزه و يقول له :

« والله ما أكرها على فرقة ، ولقد أكرها على جماعة وفضل ، فان كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما ، و إن كانا يريدان غير ذلك نظرناونظرا » .

وجاء كتاب على ورجع كعب بن رسول قاضى البصرة بما رأى فى المدينة ، فأراد طلحة والزبير تنفيذ شروط الصلح ، فقال عثمان :

— أنا لا أخرج — واحتج بكتاب على — وقال :

— هـذا أمر آخر غير ما كنا فيه .

فجمع طلحة والزبير الرجال فى ليلة مظلمة باردة ذات رياح وندى ، فاقتحموا دار عثمان بن حنيف وضربوه أربعين سوطاً ونتفوا شعر لحيته ورأسه وشعر عينيه ، وحبسوه ، ثم أمرت عائشة أن يترك ليسير حيث يشاء ، فـترك البصرة وذهب الى المدينة .

وأصبح جماعة عثمان يتأهبون للقتال وعلى رأسهم حـكيم بن جبلة وكان أتباعه ممن لهم شركة فى فتنة عثمان ، وعلموا أنهم مقتولون ان قعدوا ، واقتتل الفريقان أشد قتال ، ووضع أصحاب عائشة السيف فى خصومهم حتى لم ينج من الذين ألبوا على عثمان إلا حرقوص بن زهير أجاره قومه وأعطوا أجلا فيه .

وطلب طلحة والزبير بعد المعركة قتلة عثمان ومن ألبوا عليه ، فجاءوا ببقيتهم يسوقونهم كما تساق الأنعام فقتلوا جميعاً .

وكتب طلحة والزبير إلى أهل الشام بما وقع لهما فى البصرة فقالا :

« إنا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب الله عز وجل بإقامة حـدوده فى الشريف والوضيع والكثير والقليـل ، حـتى يكون الله عز وجـل هو الذى يردنا عن ذلك ، فبايعنـــا أهل البصرة ونجباؤهم وخالفنا شرارهم ونزاعهم فردونا بالسلاح وقالوا فيما قالوا : نأخذ أم المؤمنين رهينة ، ان أمرتهم بالحق وحثتهم عليه ، فأعطاهم الله عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة حتى إذا

لم يبق حجة ولا عذر . استبسل قتلة أمير المؤمنين فخرجوا الى مضاجعهم فلم يفلت منهم مخبر إلا حرقوص بن زهير والله تعالى مقيده إن شاء الله ، وإنا نناشدكم فى أنفسكم إلا نهضتم بمثل ما نهضنا ، فنلقى الله عز وجل وتلقونه وقد أعذرنا وقضينا الذى علينا » .

وكتبوا إلى أهل الكوفة وأهل اليمامة والمدينة بمثله ، وكتبت عائشة إلى أهل الكوفة مع رسولهم كتاباً طوته وحثتهم على متابعتها[1] .

---

(١) كانت الموقعة لخمس ليال بقين من ربيع الآخر سنة ٣٦ للهجرة .

الفصل التاسع

علي بن أبي طالب في طريق البصرة

والخلاف في الكوفة

في طريق البصرة

كان علي بن أبي طالب يحاول السير إلى الشام في أول الأمر ، فلما علم بمسير عائشة وجماعتها إلى البصرة ، قرر اللحاق بهم ، ووضع حد لعدوانهم عليه ، وإثارتهم الأمصار على بيعته . . .

ويلوح لنا أن لمعاوية ضلعا في هذه المعركة ، فقد كان له بين بطانة أمير المؤمنين عيون وأنصار ، وكان أعلم بحركات علي وأغراضه من غيره بما كان يرد إليه من تقارير عيونه وأشياعه . . . فلما أدرك أن عليا سيقصده في جيشه رأى من حسن السياسة أن يشغل عليا عن نفسه ، وأن يرده عما يقصده من التوغل في مصره ، فأرسل يحث طلحة والزبير على الثورة ، ويلوح لهما بالبصرة . ويغريهما بالخلافة ، وقال انه قد أخذ بيعة أهل الشام للزبير ثم لطلحة من بعده ونصحهما بالغلبة على البصرة والكوفة لأن فيهما الأموال والرجال ، فكان من أمرهما ما بسطناه في الفصول السابقة . . .

ولست أنكر أن يتكلف معاوية هذه السياسة وهو من يعلم الناس دهاء وحزما وبعد نظر خصوصا وأنه لم يفصح عن أغراضه حتى الآن ، وإنما كان يجاهر دائما وأبدا بأنه إنما يريد الإصلاح والاقتصاص من قتلة عثمان ، عاملا على أن يشغل خصومه الواحد بالآخر حتى إذا اقتتلوا وضعفوا ظل هو وحده القوى الشديد . . .

ولما وصل على إلى الكوفة ، كتب إلى أهلها يقول :

« أما بعد فإنى قد اخترتكم للنزول بين أظهركم ، لما أعرف من معروفكم وحبكم لله عز وجل ، ورسوله صلواته عليه ، فمن جاء ونصرنى ، فقد أصاب الحق وقضى الذى عليه » .

موقف أبى موسى

وبعث أمير المؤمنين بعض أصحابه إلى أبى موسى الأشعرى أمير الكوفة ليستنهض الناس إليه ، وليعرفوا له خبر القوم فيها ، وموقفهم منه ومن بيعته فلما قدم رسول على إلى الكوفة — وهى فى رواية محمد بن جعفر ومحمد بن أبى بكر — وفى غيرها غيرها ، واستنفر القوم ، دخل قوم من أهل الكوفة إلى أبى موسى يسألونه رأيه فقال :

— أما سبيل الآخرة فالزموا بيوتكم ، وأما سبيل الدنيا فاشخصوا معهما .

فمنع بقوله هذا أهل الكوفة من الخروج . . .

وتؤكد المصادر الموثوقة بين أيدينا على أن أبا موسى خذّل الناس ، ولم يحسن خدمة أمير المؤمنين على بن أبى طالب . .

على وولده

وتحدثنا المصادر بما دار بين على والحسن ابنه فى أثناء الطريق فتقول إن الحسن قال لأبيه يعاتبه :

— لقد أمرتك فعصيتنى . .

فقال له على : وما الذى أمرتنى فعصيتك ؟

فقال الحسن : أمرتك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينـــة فيقتل ولست بها . . .

ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى تأتيك وفود العرب و بيعـة أهل كل مصر . . فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك . . فأبيت علىَّ . . . وأمرتك حين خرجت هـذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا ، فإن كان الفساد كان على يد غيرك . . فعصيتنى فى ذلك كله . . .

فقال على : أى بنى أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقـد أحيط بنا كما أحيط به . . وأما قولك لا تبايع حتى يبايع أهل الأمصار ، فإن الأمر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر . . .

ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر منى ، فبايع الناس أبا بكر فبايعته ، ثم أن أبا بكر انتقل إلى رحمة الله وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر منى ، فبايع الناس عمر فبايعته ، ثم ان عمرا انتقل إلى رحمة الله وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر منى ، فجعلنى سهما من ستة أسهم ، فبايع الناس عثمان فبايعته ، ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه و بايعونى طائعين غير مكرهين ،

فأنا مقاتل من خالفنى بمن أطاعنى حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . .

وأما قولك أن أجلس فى بيتى حين خرج طلحة والزبير ، فكيف لى بما قد لزمنى ، أو من تريدنى أن أكون ، أتريدنى كالضبع التى يحاط بها ويقال ليست ههنا حتى يحل عرقوباها حتى يخرج . . . وإذا لم أنظر فيما يلزمنى من هذا الأمر ويعنينى ، فمن ينظر فيه ، فكف عنك يا بنى . . .

وكذلك نرى أن الحسن لم يكن بالرجل المحارب ، وأنه كان يفضل لو يصار إلى تسوية الأمور بالتى هى أحسن ، وقد رأيناه لما آل الأمر إليه وأدرك أن اتباعه غير مؤيديه حتى النهاية ، يتنازل عن الأمر لمعاوية ، ويترك الناس وشأنهم ويعود إلى بيته وولده . . .

كلمة لعلى

وخطب على الناس وهو خارج الكوفة - ويقال انه كان بالربذة - فقال: « إن الله أعزنا بالإسلام ، ورفعنا به ، وجعلنا به إخوانا بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد ، فجرى الناس على ذلك ما شاء الله ، الإسلام دينهم والحق فيهم ، والكتاب امامهم ، حتى أصيب هذا الرجل - عثمان - بأيدى هؤلاء القوم الذين نزعهم الشيطان لينزع بين هذه الأمة ، ألا إن هذه الأمة لا بد مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم ، فنعوذ بالله من شر ما هو كائن ، الا إنه لا بد مما هو كائن أن يكون . . ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، شرها فرقة تنتحلنى ولا تعمل بعملى ، فقد أدركتم ورأيتم فالزموا دينكم واهتدوا بهدى نبيكم ، واتبعوا سنته ، وأعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن ، فما عرفه القرآن

فالزموه ، وما أنكره فردوه ، وارضوا بالله عز وجل ربا و بالإسلام دينا ، و بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم نبيا ، و بالقرآن حكما و إماما » .

فى الكوفة

و بينما كان أمير المؤمنين يخطب الناس كان الخلاف على أشده بين أبى موسى الأشعرى عامل الكوفة و بين رسولى على إليه ، فإنهما لما سمعا نصيحته لأهل الكوفة ، بأن الآخرة فى البقاء ، والدنيا فى الخروج ، أغلظا له فى القول وأغلظ لهما وقال :

— والله إن بيعة عثمان لفى عنق ، وعنق صاحبكما ، فإذا كان لابد من قتال ، لا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا . .

و بينما القوم فى شأنهم بالكوفة قرر على السير إلى ذى قار ، فقام إليه رفاعة ابن راهب فسأله :

— يا أمير المؤمنين أى شىء تريد ، وأين تذهب بنا ؟ . . .

فقال — أما الذى نريد وننوى فإصلاح ، ان قبلوا منا وأجابوا اليه . .

قال — فإن لم يقبلوا . .

قال على : ندعوهم ونعطيهم من الحق ما نرجو أن يرضوا به . .

قال رفاعة : فإن لم يرضوا ؟

قال على : ندعهم ما تركونا . .

قال رفاعة : فإن لم يتركونا ؟

قال على : نمتنع عنهم . .

قال رفاعة ـ فنعم . .

ومثل هذا الجيش الذى يسأل قائده و يناقشه ، و يعد عليه أنفاسه ، لايمكن الاعتماد عليه حتى النهاية ، وهو ما حدث فعلا فى معركة صفين لما أراد على متابعة المعركة حتى الظفر ، وأبى أنصاره الا وقف القتال ، وكان من أثر هـذا ما كان من الفوضى والتبلبل والفساد . . .

وكان على لا يسير الا على تعبية ، وهو قريب من ابنه محمد بن الحنفية ، وعلى ميمنته عبد الله بن عباس ، وعلى ميسرته عمر بن أبى سلمة ، وعلى فى القلب على ناقة حمراء يقود فرسا كميتا . . .

وقدم الى على فى أثنـاء الطريق عثمان بن حنيف عامله على البصرة ، وقد نتف طلحة والزبير شعر رأسه ، ولحيته وحاجبيه فقال :

— يا أمير المؤمنين بعثنى ذا لحية فجئتك أمرداً .

فقال على : أصبت خيراً وأجراً . .

وقال على للناس :

« أيها الناس ان طلحة والزبير بايعانى ثم نكثا بيعتى ، وألبّا علىّ الناس ، ومن العجب ايثارهما لأبى بكر وعمر وخلافهما علىّ ، والله انهما يعلمان انى لست بدونهما ، اللهم فاحلل ما عقدا ، ولا تبرم ما أحكما فى أنفسهما ، وأرهما المساءة فيما قد عملا . . . »

مشاورة فى الكوفة

وعاد فى هذه الأثناء محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر رسولا على إلى الكوفة ، وكان على فى ذى قار ، فأخبراه بالذى جرى فى الكوفة ، فبعث على عبد الله

ابن عباس لينصح أبا موسى و يرده الى الطاعة ، فذهب ابن عباس فاجتمع الى أبى موسى وجماعة من رؤساء أهل الكوفة ، فقام أبو موسى خطيباً فقال :

— لا تستخفوا بسلطان الله ولا تجترئوا ، وان تأخذوا كل من تقدم عليكم من أهل المدينة فى هذا الأمر فتردوه الى المدينة ، حتى تجتمع الأمة على امام ترتضى به . . . انها فتنة صماء . . . النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الراكب ، فلا تكونوا جرثومة من جراثيم العرب ، اغمدوا سيوفكم ، وافصلوا أسنتكم واقطعوا أوتار قسيكم حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلى هذه الفتنة » . . .

فعاد ابن عباس فأخبر عليا بما جرى ، فأرسل على عمار بن ياسر وابنه الحسن الى أبى موسى .

فلما قدم الكوفة كان أول من أتاهما مسروق بن الأجدع فسلم عليهما وأقبل على عمار — وكان عمار ممن ألبَّ على عثمان — فقال له :

— يا أبا اليقظان علام قتلتم أمير المؤمنين .

فقال عمار : على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا . .

قال : فوالله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لكان خيراً للصابرين .

موقف أبى موسى وعزله

ثم خرج أبو موسى فلقى الحسن فضمه إليه وقال لعمار :

— يا أبا اليقظان أغدوت فيمن غدا على أمير المؤمنين وأحللت نفسك مع الفجار ؟

قال : — لم أفعل ولم يسؤنى .

فقطع عليهما الحسن الكلام وقال لأبى موسى :

— يا أبا موسى لم تثبط الناس عنا فوالله ما أردنا إلا الاصلاح وما مثل أمير المؤمنين يخاف على شىء .

قال أبو موسى : — صدقت بأبى وأمى ولكن المستشار مؤتمن سمعت رسول الله يقول: ستكون فتنة ، وذكر تمام الحديث .

فغضب عمار وساءه ذلك وقال :

ـ أيها الناس إنما قال رسول الله ، ذلك له خاصة .

وقام رجل من بنى تميم فقال لعمار :

ـ اسكت أيها العبد وأنت أمس مع الغوغاء وتسافه أميرنا اليوم .

وثار زيد بن صوحان وطبقته فانتصروا لعمار وجعل أبو موسى يكف الناس ويردعهم عن الفتنة ، ثم انطلق حتى صعد المنبر وأقبل زيد بن صوحان ومعه كتاب من عائشة اليه خاصة وكتاب منها الى أهل الكوفه عامة تثبطهم عن نصرة على وتأمرهم بلزوم الأرض وقال :

ـ أيها الناس انظروا الى هذه ، أمرت أن تقر فى بيتها وأمرنا نحن أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به، وركبت ما أمرنا به

فقام اليه شبث ابن ربعى فقال له :

— وما أنت وذاك أيها العبانى الأحمق سرقت أمس بجلولاء فقطعك الله وتسب أم المؤمنين .

فقام زيد وشال يده المقطوعة وأومأ بيده الى أبى موسى وهو على المنبر وقال له :

ـ يا عبد الله بن قيس أترد الفرات عن أمواجه ، دع عنك مالست تدركه . ثم قرأ: ألم أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا... الآيتين . ثم نادى سيروا إلى أمير المؤمنين وصراط سيد المرسلين وانفروا إليه أجمعين.

وقام الحسن بن على فقال :

ـ أيها الناس أجيبوا دعوة امامكم وسيروا إلى اخوانكم فانه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، والله لأن يليه أولو النهى أمثل فى العاجلة وخير فى العاقبة فاجيبوا دعوتنا وأعينونا على أمرنا أصلحكم الله . »

وقام عبد خير فقال :

ـ يا أبا موسى أخبرنى عن هذين الرجليين ألم يبايعا علياً ؟

فقال أبو موسى : بلى ...

قال : أفا حدث على حدثاً يحل به نقض بيعته ؟

فقال : لا أدرى .

قال : لا دريت ولا أتيت، إذا كنت لا تدرى فنحن تاركوك حتى تدرى أخبرنى هل تعلم أحداً خارجاً عن هذه الفرق الأربع...على بظهر الكوفة ، وطلحة والزبير بالبصرة .. ومعاوية بالشام... وفرقة رابعة بالحجاز قعود لا يجبى بهم فىء ولا يقاتل بهم عدو . . .

فقال أبو موسى : أولئك خير الناس .

فقال عبد خير : اسكت يا أبا موسى فقد غلب عليك غشك .

وقال أبو جعفر الطبرى : وأتت الأخبار علياً باختلاف الناس بالكوفة .فقال للاشتر :

ـ أنت شفعت فى أبى موسى أن أقره على الكوفة ، فاذهب فاصلح ما

أفسدت . فقام الاشتر فشخص نحو الكوفة فاقبل حتى دخلها والناس فى المسجد الأعظم فجعل لا يمر بقبيلة الا دعاهم وقال :

ـ اتبعونى الى القصر حتى وصل القصر فاقتحمه وأبو موسى يومئذ يخطب الناس على المنبر و يثبطهم وعمار يخاطبه والحسن يقول :

اعتزل عملنا وتنح عن منبرنا لا أم لك .

قال أبو جعفر الطبرى : فروى أبو مريم الثقفى قال .

« والله انى لفى المسجد يومئذ إذ دخـــل علينا غلمان أبى موسى يشتدون و يبادرون أبا موسى : « أيها الأمير هـذا الاشتر قد جاء فدخل القصر فضر بنا وأخرجنا » .

فنزل أبو موسى من المنبر و جاء حتى دخل القصر فصاح به الاشتر :

ـ اخرج من قصرنا لا أم لك ، أخرج الله نفسك فوالله انك لمن المنافقين قديماً . . .

قال : أجلنى هذه العشية .

قال : قد أجلتك ولا تبيتن فى القصر .

ودخل الناس ينتهبون متاع أبى موسى فمنعهم الاشتر وقال :.

ـ انى قد أخرجته وعزلته عنكم فكف الناس حينئذ عنه .

وخرج من الكوفة إلى جند على اثنى عشر ألفاً وقيل أقل . . . فقدموا على على وهو فى ذى قار فرحب بهم وقال :

« يا أهل الكوفة ، أنتم قاتلتم ملوك العجم ، ففضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريثهم ، فمنعتم حوزتكم ، واعنتم الناس على عدوهم ، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا اخواننا من أهـل البصرة ، فان يرجعوا فذاك الذى نريد ، وان يلجوا

داو يناهم بالرفق حتى يبدأونا بظلم ، ولم ندع أمراً فيه صلاح إلا أثرناه على ما فيه الفساد ان شاء الله »

رسل على الى البصرة

ورأى أمير المؤمنين ألا يعرض للقوم فى البصرة بقتال قبل أن يبعث إليهم نذيراً يخوفهم الفتنة ، ويدعوهم إلى الطاعة والوحدة فدعا القعقاع وهو من سادات الكوفة ، ومن أصحاب رسول الله وقال له :

ـ ألق هذين الرجلين فادعهما إلى الألفه والجماعة وعظم عليهما الفرقة ، ثم كيف أنت صانع فيما جاءك عنهما مما ليس عندك فيه وصاة منى ؟

فقال نلقاهم بالذى أمرت ، فاذا جاء منهما أمر ليس عندك فيه رأى ، اجتهدنا الرأى وكلناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغى .

فقال على : أنت لها .

ومشى القعقاع إلى البصرة فبدأ بعائشة فقال لها :

ـ ما اشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟

فقالت : أى بنى اصلاح بين الناس .

قال : فابغنى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما . فبعثت إليهما فجاءا فقال القعقاع :

انى سألت أم المؤمنين ما اشخصها وأقدمها هذه البلاد ، فقالت اصلاح بين الناس فما تقولان أنتما أمتابعان أم مخالفان ؟

فقالا : متابعان .

فقال : فأخبرانى ما وجه هذا الاصلاح فوالله ان عرفناه لنصلحن ، وإن

أنكرناه لا نصلح .

فقالا : قتلة عثمان ، فان هذا ان ترك كان تركا للقرآن وان عمل كان احياء للقرآن .

فقال : قد قتلنا قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة رجل إلا رجلا ، فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم ، وخرجوا من بين أظهركم . وطلبتم الذى أفلت «حرقوص بن زهير» فمنعه ستة آلاف ، وهم على رجل ، فان تركتموه كنتم تاركين لما تقومون ؛ وان قاتلتموهم والذين اعتزلوكم ، فاديلوا عليكم فالذى حذرتم وقعتم به ، هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون ، وأنتم أحميتم مضرور بيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير .

فقالا وقالت عائشة : فما دواء هذا الأمر ؟

فقال : لا أرى دواء لهذا الأمر إلا التسكين و إذا سكن اختلجونا ، فان أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ، ودرك بثأر هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، و إن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر فآثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح العافية ولا تعرضونا للبلاء ، ولا تعرضوا له فيصرعنا واياكم .

فقال له القوم : أحسنت وأصبت ، فان جاء على بمثل ما قلت صلح الأمر .

رجع القعقاع إلى على وأعلمه علم القوم ، وما كان منه ومنهم فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح ، ثم أمر بالرحيل بعد أن جمع الناس وخطبهم خطبة قال فيها :

« ألا و إنى راحـل غدا فارتحلوا ، ألا ولا يرحلن غدا أحد أعان على عثمان رضى الله عنه بشىء فى شىء من أمور الناس ، وليغن السفهاء عنى أنفسهم » .

و بذلك انتفى خطر الحرب من بين النـاس ، وجاءت وفود قبائل البصرة إلى قبائل الـكوفة ، وهم لا يريدون الحرب ولا يظنونها ، وآمن الناس بعضهم بعضاً . . .

المؤامرة

ولـكن بعد أن ألقى على كلمته هذه اجتمع نفر منهم علياء بن الهيثم ، وعدى بن حاتم وسالم بن ثعلبة القيسى ، وغيرهم ممن سار إلى عثمان ، أو رضى بمسير من سار ، وجاء معهم المصريون وابن السوداء ، وخالد بن ملجم فتشاوروا وقالوا :

— ان عليـا لن يتأخر عن الانتقام من قتلة عثمان والداعين إلى قتله والثائرين عليه إذا ما كثر جمعه وتوطد مركزه وسنكون نحن أول الضحايا .

ودار الحديث دورته واشـتد الجدل ، فنصحهم بن السوداء ، بألا يدعوا سبيلا إلى السلام بين الناس ، وأن نجاحهم وخلاصهم إنما يكون بإفساد الأمر بين على وخصومه فلا يتفقون عليهم ، وقال ان عزكم فى خلطة الناس تصانعوهم ، و إذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال ، ولا تفرغوهم للنظر ، فإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ، و يشغل الله عليا وطلحة والزبير عما تكرهون » .

فأعجب القوم رأيه ، وتفرقوا عليه ، والناس لا يشعرون .

الفصل العاشر

معركة الجمل

وصف للمعركة ومقتل الزبير وطلحة

جيش على

دخل جيش أمير المؤمنين على بن أبى طالب إلى البصرة مما يلى الطف فخرج الناس ينظرون إليه ، فإذا موكب فى نحو ألف فارس يتقدمهم فارس على فرس أشهب عليه قلنسوة وثياب بيض ، متقلد سيفاً مع راية ، وإذا تيجان القوم الأغلب عليها البياض والصفرة مدججين فى الحديد والسلاح ، وكان هذا موكب الأنصار وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تلاهم فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض متقلد سيفا متنكب قوساً معه راية على فرس أشهب فى نحو ألف فارس ، فإذا هو خزيمة بن ثابت الأنصارى ذو الشهادتين ، ثم تلاهم فارس آخر على فرس أشهب عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها بين يديه ومن خلفه ، شديد الأدمة عليه سكينة ووقار ، رافع صوته بقراءة القرآن متقلد سيفاً متنكب قوساً معه راية بيضاء فى ألف من الناس مختلفى التيجان حوله مشيخة وكهول وشباب ، أثر السجود قد أثر فى

جباههم ، فكان عمار بن ياسر فى عدة من الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم ، ثم مر قيس بن سعد بن عبادة فى الأنصار وأبنائهم ، ثم مر عبد الله ابن عباس على فرس أشهل ما رأى الناس أحسن منه ، عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها بين يديه بلواء ، ومعه عدة من أصحاب رسول الله ، ثم تواردت المواكب حتى جاء موكب أمير المؤمنين فى خلق من الناس عليهم السلاح والحديد مختلفو الرايات ، وحول أمير المؤمنين الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية معه الراية العظمى ، وحوله عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وفتيان بنى هاشم ، وخلفهم المشايخ من أهل بدر . . .

وانضم بنو القيس إلى على حين أقبل إلى البصرة ، وسار حتى نزل الزاوية ومنها مشى الى البصرة ، وفعل مثل ذلك جماعة عائشة وطلحة والزبير حتى التقوا عند موضع قصر عبيد الله بن زياد ، وكان نزولهم فى النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين للهجرة : . وأقام الناس ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال ، فكان يرسل على إليهم يكلمهم ويدعوهم إلى ترك الخصومة ، وتوحيد الصفوف . .

ويقول ابن سعد فى طبقاته وغيره :

« لما سار على من المدينة إلى البصرة خرج معه أربعمائة راكب مع أصحاب رسول الله ، فلما صار فى أرض أسد وطىء تبعه منهم ستمائة ، ثم صار إلى ذى قار وظل فيها حتى وافاه ستة آلاف من أهل الكوفة ، فسار بهذا الجيش إلى البصرة وكان من السهل تمييز على بقلنسوته المصرية البيضاء .

ويصفه المسعودى فيقول : كان عظيم البطن ، أصلع الرأس واللحية أدعج عظيم العينين ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، تملأ لحيته صدره ، ولا يغير شيبه .

ويتفق جميع المؤرخين بأنه كان عظيم اللحية جداً ، ومن المفروض أنه كان فى سن أضفى عليه الكثير من الاحترام ، فقد كان ينعم بالقربى ، والعلم وتقدم السن ، وكونه من الصحابة الأولين .

اعتزال الأحنف بن قيس

وكان الأحنف بن قيس زعيم تميم فى البصرة فى الحج أثناء مقتل عثمان بن عفان ، فلما انتهى الحج ذهب إلى المدينة فبايع علياً ورجع إلى قومه . . ولما علم باختلاف القوم فيما بينهم قرر الاعتزال مع أصحابه ، ولما قرب على من البصرة ذهب إليه الأحنف بن قيس وقال له :

ـ اختر منى واحدة من اثنتين ، إما أن أقاتل معك ، وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف . .

فقال على : اكفف عنا عشرة آلاف سيف . .

فرجع الأحنف فدعا أصحابه إلى القعود ، فقعد معه جمع غفير ، فلما ظفر على جاء الأحنف وبايعه هو وأصحابه . .

والأحنف بن قيس من الشخصيات البارزة التى لعبت دورها فى نشوء الإسلام وعهد الفتوح والصدر الأول من قيام الدولة الأموية . .

كان من تشويه الوجه بالقدر الأرفع ، ضئيل الجسم ، صغير الرأس ، متراكب الأسنان ، مائل الذقن ، ناتىء الوجنة ، غائر العينين ، خفيف العارضين ، أحنف الرجل ، ما تكاد تحدد النظر فى وجهه وجسمه حتى ترتد مذعورا ، من هول

ما ترى وما تنظر ، وهو إلى هذا سيد تميم ، وتميم من قبائل العرب ذات السلطان والبأس والشوكة والصيت البعيد العريض . .

ساد قومه بحلمه وعلمه وفضله ، حتى بلغ مرتبة ليس بعدها مطلب لطالب ، فضرب المثل بزعامته فى قومه وشأنه فى قبيلته ، فقالوا : هـذا رجل إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف سيف لا يسألونه لماذا غضبت ...

وهذا والله العز ما بعده العز ، والزعامة ما بعدها الزعامة . .

ولد قبل الإسلام ، ولم ينل شرف الصحبة لرسول الله ، ولـكنه نصح قومه بتقبل الاسلام ، وكانت تميم من أعز قبائل العرب كما قدمنا ، كانت تسكن مساحة كبيرة من جزيرة العرب ، تشمل نجدا وجزءا من البحرين ومثله من اليمامة ، ثم انقسمت لـكثرتها إلى فروع عديدة كانت تحارب بعضها أحيانا وتشد أزر بعضها أحياناً أخرى . .

وكانت تميم من جملة من ارتد من قبائل العرب بعد وفاة رسول الله ، ثم عادت إلى الاسلام ، وجاهدت فى عهد الفتوح ، فلما انتهى الفتح سكن بعضها الـكوفة ، وسكن البعض الآخر البصرة ، وكان الأحنف سيد تميم البصرة .

كيف نشب القتال

ولمـا خرج طلحة والزبير وعائشة إلى قتال على ، كان النـاس كما قدمنا لا يشكون فى الصلح ، وكان الجميع ينتظرون الفرصة السانحة لاقرار هذا الصلح وجعله مبرماً ...

ووقف الجيشان الواحد قبالة الآخر ، وما كانوا يزيدون عن ثلاثين ألفا ، وقد نزلت مضر إلى مضر ، وربيعة إلى ربيعة ، واليمن إلى اليمن ، فقد كان فى جند على وخصومه جماعات من بطون هذه القبائل الثلاث . . وكان أصحاب على أكثر عددا ... ، ويقول المؤرخون انهم كانوا يقاربون العشرين ألفاً ، وبات الناس وهم واثقون من الصلح والاتفاق على ما صار وصفه فى الفصل السابق ، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة ، وقد سادهم الوجوم ، واستشعروا قلقا عظيما ، وباتوا يتشاورون ، ثم أجمعوا أمرهم على انشاب الحرب دون ما إنذار ولا إشارة ، فغدوا مع الغلس ، وما يشعر بهم أحد ، وخرجوا متسللين فقصد من كان منهم من مضر جماعته ، ومشى من كان من ربيعة إلى قبيلته ، ومن كان من اليمن إلى اليمن ، فوضعوا فيهم السلاح والناس لا يشعرون فثار أهل البصرة ، وثار كل قوم فى وجه أصحابهم الذين أتوهم ونشب القتال بين جماعة على وجماعة طلحة والزبير ، وبعثوا بالخبر إلى عائشة فركبت الجمل المسمى عسكراً فى هودج ، وقد ألبسوة جلود النمر ثم ألبس فوق ذلك دروع الحديد . . .

ويقول الشعبى عن مسلم بن أبى بكرة عن أبيه أبى بكرة أنه قال :

ـ لما قدم طلحة والزبير البصرة تقلدت سيفى وأنا أريد نصرهما ، فدخلت على عائشة ، وإذا هى تأمر وتنهى ، واذا الأمر أمرها ، فذكرت حديثاً سمعته عن رسول الله « لن يفلح قوم تدير أمرهم امرأة » فانصرفت واعتزلتهم . .

ويؤكد هذا الخبر ما ذهبنا إليه سابقا من أن عائشة أم المؤمنين كانت صاحبة الأمر والنهى فى جيشها وان أحداً لم يكن يخرج عن رأيها ، ولا يخالف لها قولا . . .

و إذا كان الأمر كذلك فهل كان لعائشة سياسة معينة ، عجمت ألوانها ، ونثرت عيدانها ، فاسقبان لها القول الفصل فيها . . . . ؟

عائشة والخلافة

ترى ما كانت ترمى إليه عائشة أم المؤمنين من أغراض سياسية لو انجلت المعركة عن انتصارها ؟

أثرها كانت تبايع لطلحة بن عبيد الله ، وتدعو المسلمين لمبايعته وهو ما كانت تدعوا إليه وتنادى به وتقوم من الخليفة الجديد مقام (القوة وراء العرش) فلا يصدر أمر إلا عن مشورتها ولا يصار إلى عمل إلا برأيها . . . ؟

ترى ما يكون موقفها لو انجلت المعركة عن انتصارها ومقتل طلحة والزبير مثلا ، وهو ماحدث فعلا . . أتراها كانت تفكر فيمن سبقها من سيدات العرب ممن تولين السلطان والحكم وقيادة الجيوش والزحوف قبلها ، وفى ماضيات الأيام كزينب فى تدمر و بلقيس فى اليمن . . .

وما دمنا فى حديث العربيات الملوك فلنقصن على القارىء حديث عربيتين سبقتا عائشة أم المؤمنين فى المغامرة والجد فى طلب السلطان . . .

بلقيس

فهناك فى صحراء العربية وفوق مشارف الأرض . وأفياء الثمر ومسايل الماء قامت مدينة مأرب عاصمة اليمن ومقر أقيالها ومستقر عواهلها . .

وامتد سد مأرب بين يدى هذه الغانية الناعسة يسقى بريه أرضها و يبعث

فيها الحيـاة والهناء والرفاء ، بما مكن لسكانها من إنشاء حضارة رائعة وعمران موفور . . .

ورثت الملك عن زوجها وأبيها ، وأحسنت ما شاء الإحسان ، وأصلحت ماشاء الإصلاح ، ووطدت من أمرها ما قصر عنه سواها ، فلما سارت إلى سليمان سار فى ركابها مائة ألف من ذوى الجلد والقوة ، شاكى السلاح ، يقطعون الصحراء ، ويسيرون فى الأرض ، وقد اطمأنوا إلى أنهم وفقوا فى تقليـد أمرهم إلى من يحسن إدارته ، ويعرف كيف يدفع عنه أغراض الغزاة ، وطمع الفاتحين ...

وكان من أمرها مع سليمان نبى الله ما ذكره التاريخ ، فقد استبانت وضح الهدى وآية الله فى أغراضه ، فلم يتملكها غرور الملك ، وعز السلطان ، فتبدلت بدين أبيها دين الله ، وأقامت آية التوحيد فوق ربوع الإشراك والمجوسية ...

وفى هذا ما يدلك على رجاحة العقل ، وسماحة الرأى ، مما لا تجد مثله فى الرجال إلا قليلا ...

زينب

أما حديث زينب ملـكة تدمر ، فليجدنه القـارىء مليئاً بالطرافة مغموراً بالأسى ، فقد بسطت زينب سلطانها ونشرت أعلامها على ما بين مجاهل السودان ومعالم أنقرة الحاضرة ، من مسالك وممالك وأمم وشعوب .

وتقع تدمر فى طرف بادية الشام إلى الشمال منها ، على مدى مائة وخمسـين ميلا من دمشق ، ومسيرة أيام من الفرات ، وكانت ملتقى القادمين والرائحين بين الشام والعراق ، لذلك كان انتجاع أهل هذا البلد إلى ذينك القطرين لا ينقطع ،

ومن أجل ذلك جمعوا بين مدينتى الفرس والرومان ، فأرهفت لذلك طباعهم ورقت شمائلهم ، ونفذت أفهامهم ؛ وطفقوا يقيمون الأبنية ترسخ أصولها فى أعماق الأرض وتناطح مشارفها منازل الأفلاك ، وليس هيكل الشمس والقصر الأعظم الذى بلغ ألفى ذراع فى مثلها إلا برهاناً على ما نقدمه ، من استفحال الحضارة ، واستبحار العمران فى أرجاء هذه المملكة العربية القديمة .

وكانت زينب على فرط جمالها ، وعذوبة منطقها ، وسماحة أسلوبها ، ونفاذ لبها ، وعظمة قلبها ، من أشد الناس بأساً وأمضاهم عزما ، وأرسخهم فى الحروب قدما .

وكان إذا وقفت الصفوف ، وأشرعت الرماح ، والتمعت الأسنة ؛ تتقلد سيفها ، وتعتقل رمحها ، وعلى رأسها خوذة ، ثم تمر بين الصفوف ، فتشعل قلوبهم ناراً ، وعواطفهم جمراً ، ثم تدفعهم إلى المعارك ، فلا يمشون إلا إلى نصر ، ولا يتقلبون إلا على فتح ، وبذلك تم لها افتتاح البلاد ، واقتحام المعاقل ، حتى فاجأتها جنود الرومان ، فراحت تحاربهم ، ورجالها يتفرقون عنها ، وينفضون من حولها ، حتى أسلمت لعدوها ؛ فأخذت إلى روما أسيرة ، ثم أعيدت إلى قومها ، لمكانها فى نفوس قاهريها فعكفت على عزلتها ونسكها حتى ماتت .

عائشة فى المعركة

وكذلك يعود بنا التفكير إلى موقف أم المؤمنين من هذه المعركة ، وقد نزلت إليها بجملها وهودجها ، وسلاحها ؛ ترى ما كانت تفكر به قبل نشوب القتال وبعده ، وبعد أن خاض ناصروها وخصومها فى الدم ، أكانت لها أغراض معلومة ، وفكرة سياسية محددة أم تراها تركت الأمر للأقدار ، فان

وفقت إلى ما تريده كان لها رأيها ، وكان لها أن تختار من تشاء خليفة للمسلمين.

والواقع أن أحداً من المؤرخين لا يبحث هذه الناحية ولا يعرض لها ، فالذى يذهب إليه الناس ، وقد ذهب إليه قبلهم كل من كتب فى هذا الباب أن عائشة أم المؤمنين إنما أثارت الحرب كرها منها لعلى لما كان بينها و بينه من الخصومة، وهو مالا ينكره أحد ، ولكن أ كان هذا هو السبب الأوحد ؟ أم كانت هناك أسباب سياسية أخرى ، أخفاها الفشل ، وقتلها الانكسار وهى ما تزال فى مهدها ؟ ...

على وطلحة والزبير

فلما تراءى الجمعان خرج الزبير على فرس عليه سلاح فقيل لعلى :

— هذا الزبير . .

فقال : أما إنه أحرى الرجلين إذا ذكر بالله تعالى أن يذكر ...

وخرج طلحة بعده ، فخرج إليهما على حتى اختلفت أعناق دوابهما فقال على:

— لعمرى قد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا، إن كنتما أعددتما عند الله عذراً فاتقيا الله ولا تكونا كالتى نقضت غزلها ... ألم أ كن أخا كما فى دينكما، تحرمان دمى وأحرم دمكما ، فهل من حدث أحل لكما دمى ؟ ..

فقال طلحة : ألبت على عثمان . .

قال على : يومئذ يوفيهم الله دينهم . . . الحق يا طلحة تطلب بدم عثمان ، فلعن الله قتلة عثمان يا طلحة .. أجئت بزوجة رسول الله تقاتل بها ، وخبأت زوجتك فى البيت . . . أما بايعتنى ؟

قال : بايعتك والسيف على عنقى ...

فالتفت على إلى الزبير وقال له :

— يا زبير ما أخرجك ؟

قال الزبير : أنت . . ولا أراك لهذا الأمر أهلا . . . ولا أولى به منا . .

فقال على : ألست له أهلا بعد عثمان . . ؟ قد كنا نعدك من بنى عبدالمطلب، حتى بلغ ابنك ابن السوء ـ يعنى عبد الله بن الزبير ـ ففرق بيننا ... أتذكر يوم قال لك رسول الله « ستقاتله وأنت ظالم له » .

قال الزبير : اللهم نعم ، ولو ذكرت ما سرت سيرى هـذا . . والله لا أقاتلك أبداً . .

فانصرف على إلى أصحابه فقال لهم : أما الزبير فقد أعطى الله عهداً ألا يقاتلكم . .

ورجع الزبير إلى عائشة فقال لها :

ـ ما كنت فى موطن منذ عقلت ، إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى هذا . .

قالت : فما تريد أن تصنع ؟

قال : أريد أن أدعهم وأذهب . .

فقال له ابنه عبد الله : جمعت بين هذين الفئتين حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم . . لكنك خشيت رايات بن أبى طالب . . وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد . . وأن تحتها الموت الأحمر ، فجبنت . .

رواية ثانية

وفى رواية أخرى أن علياً برز يوم الجمل ونادى بالزبير : يا أباعبدالله مراراً.. فخرج الزبير فتقاربا حتى اختلفت أعناق خيلهما . .

فقال له على :

ـ إنما دعوتك لأذكرك حديثاً قاله لى ولك رسول الله صلى الله عليه وآله أتذكر يوم رآك وأنت معتنق فقال لك : « أتحبه ؟ » . قلت : «ومالى لا أحبه وهو أخى وابن خالى » فقال : « أما إنك ستحاربه وأنت ظالم له » .

فاسترجع الزبير وقال :

ـ أذكرتنى ما أنسانيه الدهر . ورجع إلى صفوفه فقال له عبد الله ابنه :

ـ لقد رجعت إلينا بغير الوجه الذى فارقتنا به ؟

فقال : اذكرنى على حديثاً أنسانيه الدهر فلا أحاربه أبداً وإنى لراجع وتاركهم منذ اليوم .

فقال له عبد الله : ماأراك الا جبنت عن سيوف بنى عبدالمطلب ، انها لسيوف حداد تحملها فتية أنجاد .

فقال الزبير : ويلك أتهيجنى على حربه أما انى قد حلفت ألا أحاربه .

قال : كفر عن يمينك ، لا تتحدث نساء قريش أنك جبنت وما كنت جباناً.

فقال الزبير : غلامى مكحول حر كفارة عن يمينى . . . ثم أنصل سنان رمحه وحمل على عسكر على برمح لا سنان له فقال على لأصحابه :

ـ افرجوا له فانه محرج . . ثم عاد إلى أصحابه ثم حمل ثانية ثم ثالثة ثم قال لابنه : أجبنا ويلك ترى .

فقال : لقد أعذرت .

مقتل الزبير

لما انصرف الزبير عن حرب على مر بوادى السباع والأحنف بن قيس هناك فى جمع من بنى تميم قد اعتزل الفريقين فأخبر الأحنف بمرور الزبير فقال رافعاً صوته :

ـ ما أصنع بالزبير ... جمع بين المسلمين للحرب حتى أخذت السيوف مأخذها انسل وتركهم أما انه لخليق بالقتل قتله الله .

فأتبعه عمرو بن جرموز وكان فاتكا فلما قرب منه وقف الزبير وقال :

ـ ما شأنك .

قال : جئت لأسألك عن أمر الناس .

قال الزبير : إنى تركتهم قياماً فى الركب يضرب بعضهم وجه بعض بالسيف.

فسار ابن جرموز معه وكل واحد منهما يتقى الآخر فلما حضرت الصلاة قال الزبير :

ـ يا هذا إنا نريد أن نصلى .

فقال ابن جرموز : وأنا أريد ذلك .

فقال الزبير : فتؤمنى وأؤمنك .

قال : نعم .

فثنى الزبير رجله وأخذ وضوءه . فلما قام إلى الصلاة شد ابن جرموز عليه فقتله ، وأخذ رأسه وخاتمه وسيفه ، وحثى عليه ترابا يسيرا ورجع إلى الأحنف فأخبره فقال :

ـ والله ما أدرى أسأت أم أحسنت . اذهب إلى على فأخبره . فجاء الى على فقال للآذن :

ـ قل له عمرو بن جرموز بالباب ومعه رأس الزبير وسيفه فأدخله .

وفى كثير من الروايات أنه لم يأت بالرأس بل بالسيف فقال له على :

ـ أنت قتلته .

قال : نعم .

قال : والله ما كان ابن صفيـة جبانا ولا لئيما ولـكن الحين ومصارع السوء

ثم قال : ناولنى سيفه . فناوله فهزه وقال :

ـ سيف طالما جلى به الـكرب عن وجه رسول الله . .

فقال ابن جرموز : الجائزة يا أمير المؤمنين .

فقال : أما انى سمعت رسول الله يقول بشر قاتل ابن صفية بالنار.

فخرج ابن جرموز خائباً .

أول القتال

لما اصطف أنصار أمير المؤمنين على بن أبى طالب للقتال قال على لأصحابه :

« لا ترموا بسهم ولا تطعنوا برمح ، ولا تضربوا بسيف واعذروا » .

وكان هذا رغبة منه فى ألا يثير خصومه ، ولا يبدأهم بقتال ، لعل الله يردهم إلى صوابهم ، فيسود السلام ، وتحقن الدماء . .

ولكن المتآمرين كانوا فى الميدان ، وقد أعدوا لكل شىء عدته ، فرمى رجل من معسكر طلحة والزبير بسهم فقتل رجلا من أصحاب على فأتى به إليه فقال على :

ـ اللهم اشهد . .

ثم أصيب رجل آخر فقتل فقال على :

ـ اللهم اشهد . .

وأصيب عبد الله بن بديل فأتى به أخوه يحمله فقال على :

ـ اللهم اشهد . .

ثم كانت الحرب ...

مقتل طلحة

ولما بدأ القتال أصيب طلحة بسهم فشك رجله وهو ينادى :

ـ الىَّ الىَّ عباد الله . . الصبر الصبر . .

فقال له القعقاع بن عمرو : يا أبا محمد إنك لجريح . . وإنك عما تريد لعليل . . فادخل البيوت . .

فدخل ودمه يسيل وهو يقول : اللهم خذ عثمان منى حتى ترضى . .

فلما امتلأ خفه دماً وثقل قال لغلامه :

ـ اردفنى وامسكنى وابلغنى مكاناً أنزل فيه . .

فدخل البصرة فأنزله فى دار خربة فمات فيها . .

وكان الذى رمى طلحة مروان بن الحكم وقيل غيره . . وكان مروان فى معسكر طلحة والزبير يحارب علياً ، ولكنه كان ممن يحقد على طلحة لتألبه على عثمان ، ومروان كان كاتب عثمان ومستشاره ، والرجل الذى كان سبب كل الرزايا التى نزلت بالخليفة الثالث . .

القتال الشرير

ويظهر أن جماعة عائشة تراجعوا فى أول المعركة من شدة الهجوم الذى قام به فرسان على وأنصاره ، وانهزموا يريدون البصرة ، فلما رأوا الخيل أطافت بالجمل وفيه عائشة أم المؤمنين عادوا وقد دبت النخوة فيهم ، وراحوا يدافعون عنها كأحسن ما يدافع الأبطال . .

ودعت عائشة فى هذه الأثناء كعب بن سور فأعطته مصحفاً وقالت :

ـ تقدم به فادعهم إليه . .

فلم يوفق وجاءه سهم فأودى به . .

فاذا صح هذا الخبر وقد رواه غير واحد من المؤرخين ، فتكون عائشة أول من فكر بالصلح وحقن الدماء بعد بدء المعركة بقليل ، وبعد مقتل طلحة

وانسحاب الزبير ، ولكن الخبر كما يظهر لم يصل إلى مسامع على ، وحالت الخيل والرماح دون وصول الرسول إليه[١] . .

وبدأت المعركة شديدة قاسية كالحة مخيفة ، وانهالت السهام على جمل عائشة وتسلمت أم المؤمنين قيادة الجيش وقد قتل طلحة ، وانسحب الزبير فلم يبق فى الميدان إلاها تحرض الناس ، وتدعو إلى الثبات وجعلت تنادى :

ـ البيضة البيضة يا بنى ...

ويعلو صوتها وهى تقول :

ـ الله الله اذكروا الله والأحساب ....

فلما رأت أن خصومها يأبون إلا إقداماً ، وأنهم ما يبرحون يرمون جملها بالسهام ، راحت تنادى أنصارها وتقول :

ـ أيها الناس العنوا قتلة عثمان ...

وأقبلت تدعو ، وضج الناس بالدعاء فسمع على الضجة فقال :

ـ ما هذه الضجة ؟

فقالوا : عائشة تدعو على قتلة عثمان وأشياعهم . .

فقال على : اللهم العن قتلة عثمان ...

المعركة حول الجمل

خاضت أم المؤمنين المعركة مع الخائضين ، وتقدمت الصفوف وهى تحرض

---

(١) وتكون أيضاً قد سبقت عمرو بن العاص فى دعوة الناس إلى تحكيم القرآن فيما أشكل بينهم . . وهو ما فعله عمرو بن العاص ومعاوية فى معركة صفين بعد ذلك . .

جماعتها على الثبات حين رأت جماعة على يريدونها ، ولا يكفون . . فحملت مضر البصرة حتى قصفت مضر الكوفة ...

فقال على وقد رأى اشتداد القتال لابنه محمد بن الحنفية وكان يحمل رايته:

ـ احمل ...

فحمل يهز الراية ، وحملت مضر الكوفة معه ، فاجتلدوا قدام الجمل . . وأصحابه يدافعون عنه لا يسمحون لأحد أن يتقدم إليه أو يدنو منه . .

فلما رأى على ذلك بعث إلى ربيعة وإلى اليمن : أن اجمعوا من يليكم .

وكان أهل الكوفة لا يريدون إلا القتال ، ولا يريدون إلا عائشة .. واشتد القتال هولا وشدة وقسوة ، وقاومت مضر الكوفة مضر البصرة ، وجالدت ربيعة البصرة ربيعة الكوفة ، وقاتلت اليمن بعضها قتالا عنيفا ...

وعائشة فى هذه الأثناء تشجع الناس حولها ، وتتقدم فى المعركة على هودجها وقد قتل من بنى ضبة ـ وكانوا حماة الجمل ـ خلق كثير ، وهم يدافعون عنه ، فلم يبق منهم إلا من لا نفع عنده ، فأخذت عندئذ الأزد بخطامه فقالت عائشة :

ـ من أنتم ؟

فقالوا : نحن بنوك الأزد .

فقالت : صبراً فانما يصبر الكرام . . وما زلت أرى النصر مع بنى ضبة فلما فقدتهم أنكرته . . فأثارت حمية الأزد بكلامها هذا ، فقاتلوا قتال الموت ..

وكان الناس يتبارزون ما بين ذلك . . ولم يزل القتال شديداً حول الجمل حتى قتل حوله خلق كثير . .

ولقد أجمع المؤرخون على أن أشد القتال كان حول الجمل وحول أم المؤمنين عائشة ، وكان بنو ضبة قد أحاطوا به وأطافوا حوله أول الأمر فقتل منهم ألفان ، ولم يبق منهم أحد ، فأطاف به الأزد فقتل ألفان وسبعمائة ، وكان لا يأخذ خطام الجمل أحد إلا سالت نفسه ، ودامت الحرب أربع ساعات من النهار ...

وقتل فى سبيل الجمل من أصحاب على خلق كثير أيضا ، وجرح عبد الله بن الزبير سبعا وثلاثين جراحة . . ونادى على بأصحابه :

ـ اعقروا الجمل . . فانه ان عقر تفرقوا

فضربه رجل فسقط ... وخرج منه صوت عظيم .

وانهزم الناس . فنادى منادى على :

— لا تتبعوا مدبراً . ولا تجهزوا على جريح . ولا تدخلوا الدور .

عائشة بعد المعركة

وأمر على ابن أبى طالب أخا عائشة محمد بن أبى بكر وكان من أنصاره ، أن يضرب على أخته قبة وقال :

ـ انظر هل وصل إليها شىء من جراحة ؟

فأدخل رأسه فسألها عن حالها ؟

ـ وقيل لما سقط الهودج بسقوط الجمل ، أقبل محمد بن أبى بكر إليه ومعه عمار بن ياسر ، فاحتملا الهودج فنحياه . وأدخل محمد رأسه وسألها عن حالها فقالت :

ـ ما أنت وذاك .

وقال لها عمار : كيف رأيت بنيك اليوم يا أماه ؟

فقالت : لست لك بأم...

فقال : بلى و إن كرهت .

وجاء على فقال : كيف أنت يا أمه.

قالت : بخير .

قال . يغفر الله لك .

قالت : ولك .

عودة عائشة إلى مكة

فلما كان الليل أدخلها أخوها محمد بن أبى بكر البصرة ، فأنزلها فى دار عبد الله بن خلف الخزاعى . وتسلل الجرحى من بين القتلى ليلا فدخلو البصرة، وأقام على بظاهرها ثلاثاً ، وأذن للناس بدفن موتاهم ، فخرجوا إليهم فدفنوهم ، وصلى على القتلى من أهل البصرة والكوفة . وصلى على قريش من هؤلاء وهؤلاء. وأمر فدفنت الأطراف فى قبر عظيم . وجمع ما كان فى المعسكر من شىء فبعث به إلى مسجد البصرة وقال :

ـ من عرف شيئاً فليأخذه ، إلا سلاحاً كان فى الخزائن عليه سمة السلطان.

وكان جميع القتلى عشرة آلاف أو أكثر ، نصفهم من أصحاب على ، والنصف الآخر من أصحاب عائشة .

ثم جهز على عائشة بكل ما ينبغى لها من مركب وزاد ومتاع ، و بعث معها كل من نجا ممن خرج معها . إلا من أحب المقام ، واختار لها أربعين سيدة من

نساء البصرة ، وسير معها أخاها محمد بن أبى بكر ، فلما كان اليوم الذى ارتحلت فيه أتاها على فوقف لها ، وحضر الناس ، فخرجت فودعتهم وقالت:

ـ يابنى لايعتب بعضنا على بعض ، انه والله ما كان بينى و بين على فى القديم إلا ما يكون بين المرأة و بين احمائها ، وأنه على معتبتى لمن الأخيار ..

فقال على : صدقت والله ، ما كان بينى و بينها إلا ذاك ، وأنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة.

وخرجت يوم السبت غرة رجب ، وشيعها على بن أبى طالب أميالا ، وسرح بنيه معها يوما ، فذهبت إلى مكة ثم رجعت الى المدينة(١) .

---

(١) ويذكر ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة خطبة فيقول :

« خطبت عائشة الناس يوم الجمل وقد أخذوا مصافهم للحرب فقالت : أما بعد فانا كنا نقمنا على عثمان ضرب السوط وإمرة الفتيان وموقع السحابة المحمية ، ألا وإنكم استعتبتموه فأعتبكم ، فلما مصصتموه كما يماص الثوب الرخيص عدوتم عليه ، فارتكبتم منه دماً حراماً ، وايم الله انه كان لأحصنكم فرجاً وأتقاكم لله . .

خطاب لعلى

وخطب على لما تواقف الجمعان فقال :

« لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم فانكم بحمد الله على حجة ، وكفاكم عنهم حتى يبدءوكم حجة أخرى . . وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح ، وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبراً ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً ، ولا تهيجوا امرأة بأذى ، وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم وصلحاءكم ، فانهن ضعاف العقول والقول والأنفس . . لقد كنا نؤمر بالكف عنهن وانهن لمشركات ، وان كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة فيعير بها وعقبه من بعده . فكيف وهن مؤمنات » ..

الموقف من أهل الجمل

وقد اختلف المتكلمون فى من اشترك فى يوم الجمل ، فقالت الأمامية من الشيعة : كفر أصحاب الجمل كلهم الرؤساء والأتباع ، أى الذين حاربوا عليا .

وقال آخرون : اجتهدوا فلا اثم عليهم ، ولا نحكم بخطئهم . . ولا خطأ على وأصحابه ..

وقال قوم : بل نقول أصحاب الجمل اخطأوا ، ولكنه خطأ مغفور كخطأ المجتهد فى بعض مسائل الفروع من الشرع .. وإلى هذا ذهب أكثر الأشعرية وهم أهل السنة ..

وقال المعتزلة : أهل الجمل هالكون إلا من ثبت توبته منهم ، وعائشة ممن ثبتت توبته ، وكذلك طلحة والزبير . أما عائشة فانها اعترفت لعلى يوم الجمل بالخطأ وسألته العفو . وقد تواترت الرواية عنها بإظهار الندم وأنها كانت تقول :

ـ ليته كان لى من رسول الله بنون عشرة كلهم ثكلتهم ولم يكن يوم الجمل .

وأنها كانت تقول : ليتنى مت قبل يوم الجمل .

وأنها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكى حتى تبل خمارها .

وأما الزبير فقد رجع عن الحرب معترفاً بالخطأ . وكذلك الأمر فى طلحة الذى يقال إنه بايع عليا بواسطة أحد أنصاره .

بعد الجمل

ومما يروى أنه دخلت أم أوفى العبدية على عائشة بعد الجمل فقالت :

ـ يا أم المؤمنين ما تقولين فى امراة قتلت ابناً لها صغيراً ؟ .

فقالت عائشة : وجبت لها النار .

فقالت أم أوفى : فما تقولين فى امرأة قتلت من أولادها الأكابر عشرة آلاف

فقالت عائشة : خذوا بيد عدوة الله . .

الفصل الحادي عشر

عظة يوم الجمل

المسلمون يقاتل بعضهم بعضاً

وأخيراً تلاقى العرب المسلمون فى صعيد واحد ، يضرب بعضهم رقاب بعض ويسفك بعضهم دماء بعض ، وكل فرقة تأتمر بكبير من أصحاب رسول الله ، وعظيم من عظماء الإسلام . فسهل بعدها أن يحارب العربى المسلم أخاه العربى المسلم ، وأن يسفك دمه ويرفع السيف عليه ، وكان قبلا لا يرفع سيفه إلا اعزازاً لدين الله ، وترويجا لدعوة محمد ، وأمراً بالمعروف ونهيا عن المنكر . . .

ولقد نفضنا فى الفصول السابقة حديث الخلاف ، وجلونا أخبار الفتنة بأقصى ما فى طوقنا من البيان ، ونظن أننا وفقنا على قدر وإن القارىء واقع على أسباب الفتنة وأخبارها وأحداثها بما يمكنه من تفهم الحقائق ويساعده على الوصول الى الرأى الحق فى ما حدث وكان .

والواقع أننا فى فترة من الزمن اختلف فيها المسلمون شيعا . وتمزقت آراءهم وأغراضهم ، فلم يوفقوا إلى الحق فيها والصواب فى شأنها ، حتى الذين حملوا

لواء الفتنة ، واندفعوا فى غمارها وأغوارها ، فقد روى عن الزبير بن العوام أنه سمى فى بعض خطبه ما فيه الناس (فتنة) فقال له بعضهم :

ـ أتسميه فتنة وأنت تقاتل فيه ؟

فقال : والله ما وضعت رجلى فى شىء الا وأنا أعلمه ، إلا هذا الأمر فانى لا أدرى أيقبل أم يدبر .

وروى عن طلحة مثل ذلك وأنه قال : ما يعرف أهو على حق وصواب ، أم على خطأ وظلم... واذا كان هذا موقف القائمين بهذا الأمر ذلك العهد ، فكيف بالمؤرخ المعاصر وقد بعدت الشقة بينه و بين هذه الأحداث ، واختلف المؤرخون اختلافا عظيما فى تأويلها وتفسيرها وأخبارها وبحثها .

و يؤيد ما أشرنا اليه من اختلاف الرأى موقف طائفة من الصحابة لم تبايع عليا ولم تبايع غيره ، ولم تشترك فى شىء من الخلاف القائم . وفضلت العزلة ، ومن أشهرهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ومحمد بن مسلمة ، وسعد بن وقاص ، وأسامة بن زيد ، وحسان بن ثابت ، وعبد الله بن سلام ، ومن قول سعد بن أبى وقاص فى ذلك :

« ان رسول الله أمرنى اذا اختلف الناس أن أخرج بسيفى فاضرب به عرض أحد ، فاذا انقطع أتيت منزلى فكنت فيه لا أبرحه حتى تأتينى يد خاطية ، أو منية قاضية » .

المسؤولية

ولقد بسطنا فى كتابنا هذا كيف انتهى أمر طلحة والزبير سريعا بانهزامهما وقتلهما فى وقعة الجمل ، وكيف عادت عائشة بعدها الى المدينة ، فلم تخرج منها

بعد ذلك الى حرب أو قتال ، وكيف حملت لواء هـذا الزحف ، وتولت كبره ، وتقدمت الرجال الى المعركة ، وحثت الناس على المطالبة بدم عثمان ، ونحن الذين نؤرخ معركة الجمـل لا نستطيع أن نتجاهل بسالتها فى الموقعة ، ووقوفها تسيطر على أقدار الجند ، وتحثهم على الاستبسال ، وتدفعهم الى حومة الوغى ، والسهام تتساقط عليها وعلى جملها ، فـلا تلين ولا تخاف ؛ ولا تضطرب ولا تخزع حتى سقط حول الجمل سبعون قرشيا من البواسل والمغاوير وآلاف غيرهم من المساعير ، ولـكن بسالتها هذه لم تنجها من حكم التاريخ فقد أنـكر عليها موقفها المؤرخون وقالوا : ما كان لها أن تتولى كبر هذا الأمر ولا أن تطالب كما تزعم بدم عثمان ؛ لأن أولياءه كثيرون ، وقد علمت أن معاوية بالشام غير وان فى أمره ، ولا متخاذل فيه ، وهو على العمل أقدر منها وأولى بعثمان ، وأمس به رحماً ، وأقرب قرابة ، وليست رحمها الله ممن جعـل الله لهم سلطان هذا الأمر ، ولولا وجودها فى هذا الجيش لماتت الفتنة فى البصرة ، ولم يكن لهم نظام ولا حميـة ، وجودها كان سببا لاشتداد البـلاء على المسلمين ، ومثاراً لأمور أنتجت الحزن والأسى والتفرقة والاختلاف .

وأما طلحـة والزبير فهما كذلك ليسا من ولاية عثمان فى شىء وقد كانا له بين قائم فى الفتنة مثير حريقها ، و بين خاذل مشير إشارته أنفذ من سيف ، لا يعنيه من الأمر إلا أن تكون الفتنة بيد غيره و يباشرها سواه ، حتى تساق إليه الخلافة و يده نظيفة من الدم كيلا يكون لأحد عليه سبيل ، فلما وقعت الواقعة وأخطأه ما أمل ، ورأى أنه كان يسعى لغيره ، رجا أن ينال فى سلطانه بعض ما له عزاء . فلما رأى الفائز قد نفض يده عنه ، ولم يسوغ له ما أراد ، ندم وخرج

كل منهما ليغسل الدم بالدم ، ويكفر عن السيئة بما هو أسوأ منها عاقبة ، فسهلا على عائشة خروجها إلى ماليس من شأنها ، راجين بلوغ الأرب بمكانها ، فكان الموت فيما يرجون ، وحيل بينهم و بين ما يشتهون ،

شخصية على

ونأتى أخيرا إلى شخصية رائعة ، هى شخصية أمير المؤمنين على بن أبى طالب وهى من أصعب الشخصيات تصويرا ، لما دخلها من المبالغات والأكاذيب ، وما دار حولها من الجدل ، فقد أفرط فى بحثها المحبون والكارهون ، واختلف حولها المختلفون ، وتأسست من أجلها المذاهب الدينية ، وذهب المؤرخون يقولون فى بحث الفتنة إنه لم يكن عند على من الأناة ، وحسن التأنى للأمور ما يتألف به الشارد و يسلس قياد الجامح ، ولو أنه أرضى الرجلين (طلحة والزبير) ببعض ما فى يده مما ليس فيه معصية لله ، ولا حيف على الرعية لكان ذلك أجمل أثرا فى العاقبة وأقطع لدابر الفتنة ، و إذا اعتذر له بعضهم بأنه لم يفعل ذلك اشفاقا منه أن يؤلبا عليه الناس . والبصرة والكوفة فيهما الرجال والأموال أجاب المؤرخون : « بأنه كان من الحكمة ارضاؤهما أول الأمر ، حتى إذا اتسق له الملك أبعدهما ، فيكون قد حقن بذلك الدماء ، وأدرك ما أراد » .

والواقع أننا لا نرى أمير المؤمنين مخطئاً فى منعهما الولاية التى طلباها ، وقد أظهرا مثل هذه الرغبة الملحة فيها ، ولو أنه أقطعهما العراقين لما كان هناك مانع يمنعهما و بيدهما الأموال ، وعندهما الرجال ، من الدعوة لأنفسهما ، خصوصا وان لكل منهما شيعة كانت تروج له وتدعو لولايته ، ومعاوية فى الشام يدعوهما

إلى الثورة ، و يسألهما النصرة ، و يمنيهما بالخلافة ، ولذلك لا نرى الاعتراض على أمير المؤمنين من الحكمة فى شىء أبداً .

ولكن علياً إلى ذلك كله لم يكن القوى على جنده المالك لزمام عسكره ، الحذر لكل ما يخاف ، الواقف على كل ما يحدث فيما بينهم ، وكان عمر بن الخطاب وهو فى المدينة واقفا على كل صغيرة وكبيرة فى أمر جنده بالعراق وفارس وارمينيا والشام ومصر وتخوم الروم ، لا يغيب عنه شىء من خيرهم وشرهم ، وأما الإمام فقد كان تاركا شأنهم وهو بين ظهرانيهم ، يجتمعون و يدبرون الأمور و يبثون الشر و يكيدون له وللمسلمين حتى لقد فكروا فى الكيد له والحاقة بعثمان ، وهو لا علم له فيما يدبرون ، ولو كان من الضبط لأمره والحيطة فى شؤونه بالمكان الذى يجب أن يكون به ، لما مكن رجال الفتن أن ينشبوا القتال على الشكل الذى أشرنا إليه قبلا .

تعليق المعاصرين

« ولا يمكننا أن نبرر عمل الفريقين المتحار بين من كل الوجوه، فان طلحة والزبير وعائشة خرجوا — كما يقولون — للمطالبة بدم عثمان الذى سفك حراماً من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك ، ولا نرى كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين إمام يرجع إليه الأمر فى تحقيق هذه القضية و إقامة الحد على من يستحقه[1] ؟

(١) الخضرى .

«ان اعطاء الحق للأفراد فى أن يجتمعوا لإقامة حد قصر الامام فى إقامته ، أو اتهم بالهوادة فيه مفسدة للنظام الذى أسس عليه الاسلام، و إذا كانوا لايرون لإمامة على صحة فقد كان الواجب دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين أولا للنظر فى أمر الخلافة واعطائها لمن يرضاه الناس ، ثم ينظرون بعد ذلك فى اقامة الحد ، ولكنهم قاموا بصفتهم أفرادا من كبار الأمة ودعوا الناس إلى أمرهم من غير أن يكون لهم امام يرجعون إليه ، ولا ندرى كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقتهم وفضلهم ، ولكنهم يقولون ان الفتن إذ ا أقبلت تشابهت ، و إذا أدبرت تبينت .

«والواقع أن أولئك الشياطين الذين لايريدون بالأمة خيراً أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه الأمر على الفريقين ، وكان من الخطأ العظيم أن يستعين على بمثل هذه الفرقة و يجعلها تأوى إلى جنده فى الوقت الذى يطالب الناس فيه من كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان ، لأنهم قوم لا يحسن فى نظرهم أن يتفق على ذلك الناس ، والاتفاق انما يقع على رؤوسهم ، فهم يبذلون كل جهدهم فى تضييق المسالك على كل من يريد الاصلاح حفظا لأنفسهم، على ان مجرد وجودهم فى جيشه كاف لأن تحوم الظنون حول موقفه وان كان هو ينكر ذلك انكاراً تاماً وهو عندنا الصادق فى قوله .

« والواقع أن تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين كما أنها تدلنا على أنه لا يكفى لبراءة الإنسان من الفعل ألا يكون قد فعله ، بل يجب عليه أن يبتعد عن ما يحدث الريبة فى براءته ، وليس يكفى الرئيس لتقوية مركزه أن يكون عنده من القوة ما يغلب به من خرج عليه من قومه ، بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة والأناة ما يعيد الخارج عليه إلى حظيرته » .

ومن الجميل أن نقول فى ختام هذا الفصل إن سيرة أمير المؤمنين فى أصحاب الجمل ، كانت سيرة رفق وحلم عظيمين بعد الموقعة وكان من أمره ألا يُقتل مدبر ، ولا يُجهز على جريح ، ولا يكشف ستر ، ولا يؤخذ مال من صاحبه ، ومثل هذا ليس بالكثير على أمير المؤمنين ، وربيب رسول رب العالمين .

والواقع أن غلبة على فى وقعة الجمل ، كانت نصراً لأهل الكوفة على أهل البصرة ، كما أن مقتل الزبير وطلحة وغيرهما من سادات قريش فى هذه الموقعة كان عظيم الأثر فى مركز قريش وزعامتها على القبائل العربية ، ومما لا شك فيه أن هذه الحرب قد أضعفتها ، وأضرت بقوتها ضرراً بليغا وكان من أثر هذا الفوز ، وكره قريش لعلى ونصرة أهل الكوفة له ، أن ذهب أمير المؤمنين ينقل مركزه من المدينة إلى الكوفة بحيث يكون بعيداً عن قريش وحقدها ، قريبا من الكوفة وتأييدها .

مسألة الخلافة

والذى يصار إلى بحثه فى ختام هذا الكتاب هو أن مسألة الخلافة كانت سبب كل ما جرى من نزاع وانقسام فى الإسلام ، فقد كان السؤال الذى تبادر على الألسنة بعد وفاة رسول الله هو : من يخلفه ؟ وهل نصب رسول الله عليا حقا ليقوم مقامه من بعده وهو صهره ؟ أم كان يرى صلى الله عليه وسلم أن يصار إلى انتخاب الخليفة من وجوه المسلمين على نحو أوسع من الشورى وأضخم ؟ وهل يدل أمره أبا بكر بالصلاة بالناس على اختياره للخلافة ؟

هذه المسائل الشائكة هى التى شقت الإسلام إلى شقين وأدت أخيراً إلى

امتشاق السيف ليصار إلى تسويتها بالسيف ، كما هيأت الأساس التاريخى لتطور عقيدة الامامة .

وقد أدى الاختلاف على الخلافة بين المسلمين إلى اختلاف آخر يتعلق بحقوق الخليفة وامتيازاته ، فالخليفة عند السنة مثلا هو رئيس السلطة الزمنية ، ومجرد من كل سلطة تتعلق بالعقيدة ، فليس هو فى الواقع سوى حامى الشريعة والذائد عن حياض الإسلام ، وهو لا يشبه الإمام عند الشيعة فى كثير ولا قليل ، لأن الامام عند الشيعة أنصار الإمامية ، والذين يقولون بأحقيـة على بن أبى طالب بالخلافة على أن يرثها أبناؤه من بعده هو إمامها الأكبر ، ومعلمها المعصوم ، وهو ليس خليفة محمـد بن عبد الله الزمنى فحسب ، بل وراث مركزه ، والمنصوص عليه منه ، ومفسر وحيـه ، وهو الزعيم الدينى والدينوى معا ، ومركزه أسمى من مركز البابا فى المسيحية إذ يضيف إلى صفته ، صفة التنزيه والنصب من الله ، فهو الطريق الوحيد لمعرفة الله .

ويبدو لنـا أن رسول الله كان كثير الرغبة فى الولد ، لأننا نراه يتزوج فى السنتين السادسة والسابعة للهجرة غير مرة ، وقد يدل هذا على أنه لم يكن قانعا كل القنوع فى أمر من يخلفه فى بيته ، وفى السـنة الثامنة للهجرة أولد مارية القبطية التى أهداها إياه صاحب مصر ، ولداً أسماه إبراهيم ، وفرح به رسول الله فرحا عظيما ، وعق له فى اليوم السابع بأن نحر له كبشا كما هى العادة . وتصدق بوزن شعره فضة بعد أن حلقه ، فهل خطر لرسول الله أن يحصر المركز الدينوى فى ولده من بعـده . إنه فى الواقع سؤال من الصعب البت فيه لأن هذا الطفل المحبب إلى الرسول توفى ولما يدرك السنتين من العمر .

وكذلك جرت الأمور على النحو الذى أراده الله ، ولو ترك رسول الله ولداً لتبدل وجه التاريخ . . .

المصادر

المصادر العربية

طبقات بن سعد	ابن سعد
الامامة والسياسة	ابن قتيبة
المعارف	«
فتوح البلدان	للبلاذرى
أنساب الاشراف	«
ـ تاريخ اليعقوبى	أحمد بن يعقوب
ـ « الأمم والملوك	الطبرى
« ابن خلدون	ابن خلدون
« دمشق	ابن عساكر
« الخميس	للديار بكرى
الكامل	ابن الأثير
أنساب القرشيين	المقدسى
الاستيعاب	ابن عبد البر (طبع الهند)
ـ الأغانى	للأصفهانى
معجم البلدان	ياقوت الحموى
ـ أسد الغابة	ابن الأثير
الكامل	المبرد
المختصر فى أخبار البشر	أبو الفداء
الإصابة فى تمييز الصحابة	ابن حجر العسقلانى

صحيح البخارى	البخارى
شرح نهج البلاغة	ابن أبى الحديد
ـ وفيات الأعيان	ابن خلكان
فوات الوفيات	. . .
الفخرى	ابن طباطبا
ـ العقد الفريد	ابن عبد ربه
مختصر تاريخ الدول	ابن العبرى
ـ مروج الذهب	المسعودى
الأخبار الطول	للدينورى
البداية والنهاية	. . .
الأموال	ابن سلام
كتاب الخراج	أبى يوسف
كتاب الجمل	المدائنى
الخلفاء الراشدون	عبد الوهاب النجار
تاريخ الأمم الإسلامية	محمد الخضرى
التمدن الإسلامى	جرجى زيدان
فجر الإسلام	أحمد أمين
خطط الشام	محمد كرد على
ـ الفصل فى الملل والنحل	الشهرستانى
الملل والنحل	لابن حزم
عيون الأخبار	ابن قتيبة
الحيوان	الجاحظ
المواعظ والاعتبار	المقريزى
فرق الشيعة	النوبختى
النجوم الزاهرة	أبو المحاسن

أبو بكر	عمر أبو النصر
عمر بن الخطاب	»
عثمان بن عفان	»
على بن أبى طالب	»
معاوية بن أبى سفيان	»

المصادر الأفرنجية

الخلافة	موير
دائرة المعارف البريطانية	
» » الإسلامية	
مجموعات المجلة الاسيوية	
فاطمة بنت محمد	لا منس
معاوية	لا منس
تاريخ العرب	هوار
المحمدية	مرغوليوث
مذكرات دى غوبى	عن القرامطة
تاريخ العرب الأدبى	نيكولسن
الخلافة	ارنولد

وقد اعتمدنا فى الوقت نفسه على مؤلفات فون فلوتن وغولد زهير فى دراساتهعن الإسلام ، كما قرأنا ما كتبه المؤلف الهندى بوش كودا عن الحضارة الإسلامية وما أصدره كيتانى المؤرخ الإيطالى عن تاريخ الإسلام ؛ وهناك بعض المؤلفات القديمة التى صدرت عن محمد والإسلام لسنوات خلت فى الانجليزية أو منذ ثلاثين سنة أو أكثر ، وهذه فى أكثرها لا تعتبر من المصادر الموثوقة ، وأوثق الدراسات كان ما صدر عن الألمان ، أو من هم من أصل المانى ، وأضعفها ما كتبه ولس وغيلمان وايرفنغ ، ولان بول وأمثالهم . .

فهرس

الصفحة	الفصل	
٥		مقدمة الكتاب
٩	١	المؤامرة
١٦	٢	عائشة أم المؤمنين
٢٣	٣	أسباب الخصومة بين على وعائشة -
٣١	٤	بيعة على بن أبى طالب
٣٨	٥	هاشم وأمية
٥١	٦	عائشة زعيمة الحزب المعارض
٥٨	٧	الفتنة أسبابها و نتائجها
٦٩	٨	التأهب إلى البصرة
٨٦	٩	على بن أبى طالب فى طريق البصرة
٩٩	١٠	معركة الجمل -
١٢١	١١	عظة الجمل
١٢٩		مصادر الكتاب
١٣٢		فهرس الكتاب

للمؤلف

مطبوعات المكتبة الأهلية فى بيروت

هرون الرشيد

تيمورلنك

الأمير عبد الكريم بطل الريف

☆ فيصل ملك العراق

☆ سيد الجزيرة العربية (ابن السعود)

☆ كفاح هتلر

☆ هتلر المرعب

☆ البحث عن الله

(قصة نبيلة انكليزية تقبلت الإسلام)

الحسين بن على

محمد النبى العربى

☆ ماذا يجب أن تعرف عن محمد والإسلام

محمد وأقوال المستشرقين فى رسالته

☆ فاطمة بنت محمد

أبو بكر الخليفة الأول (الطبعة الثانية)

عمر بن الخطاب

عثمان بن عفان

☆ على بن أبى طالب(١)

☆ معاوية بن أبى سفيان

يزيد بن معاوية

الحجاج بن يوسف

☆ خالد بن الوليد

الحرب العظمى ١٩١٤ - ١٩١٨ (مجلدان بألفى صفحة من القطع الكبير)

العراق الجديد

(١) ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية وطبع فى طهران سنة ١٩٣٩

(*) هذه الإشارة تدل على أن الكتاب نفدت طبعته

مطبوعات دار النشر العربية ببيروت (١)

مواقف مؤثرة فى تاريخ محمد بن عبدالله
الاشتراكية والشيوعية فى الإسلام
قلعة الموت
(تاريخ الحسن بن الصباح زعيم الحشاشين)
رايات الإسلام ـ فتوح العرب فى العراق ـ
الفتوح العربية فى سورية
مسرحيتان فى كتاب واحد

مطبوعات أخرى

* تاريخ سورية ولبنان (جزآن)
* البوليس (مجلدان) ـ مجموعة بوليسية روائية ـ ١٩٣٣
* أرسين لوبين (مجلدان كبيران) مجموعة بوليسية روائية ـ ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩
* جهاد فلسطين العربية
* اليقظة العربية
* تركيا الجديدة
* دولة الأدب والبيان
* رجال الجمهورية (فى لبنان)
* عشرون سنة بعد الحرب
* العرب
(مجموعة تاريخية تبحث تاريخ الأمة العربية منذ فجر التاريخ إلى وفاة محمد بن عبد الله)
الدهاة الثلاثة
(زياد بن أبيه، المغيرة بن شعبة، عمرو بن العاص) مكتبة مصر ومطبعتها ١٩٤٦

---

(١) صار طبع هذه الكتب مؤخراً فى أواخر سنة ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦
(*) هذه الإشارة تدل على أن الكتاب نفدت طبعته

يصدر للمؤلف

السياسة والخلافة عند الشيعة

آل محمد في كربلاء

بين شهيد وشريد وجريح

ويطلب من
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه
صندوق بريد الغورية رقم ٢٦ — تليفون ٥٠٨٥٦ — القاهرة